

روايات مصرية للجيب
27
ما وراء الطبيعة
أسطورتنا ..!

ماوراء الطبيعة
روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

٠٣٤٧٩



د. أحمد خالد توفيق

أسطورتنا .. !

الناس يتهامسون .. يقولون إن بيتنا يختلف عن كل البيوت .. عاداتنا تختلف عن كل العادات .. ضيوفنا يختلفون عن كل الضيوف .. الناس يتهامسون ويرتجفون ! يعلمون أن لدينا سرًا صغيرًا .. وهذا السر يجعلنا لا كالآخرين .. ولدينا أسطورة تختلف عن كل الأساطير .. إنها أسطورتنا .. !

الثمن فى مصر
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقى بالفجالة - القاهرة - ت ٥٩٠٨٤٥٥

العدد القادم :
أسطورة آخر الليل

27

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

أسطورتنا .. !

روايات مصرية للجيب

●

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنَّف مصرى مائة فى المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف

الأستاذ/حمدى مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية - منافذ البيع ١٠، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر
الجديدة - القاهرة ت : ٢٨٢٣٧٩٢ - ٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس - 202/2596650 ج.م.ع.

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

27

أسطورتنا..!

بقلم :

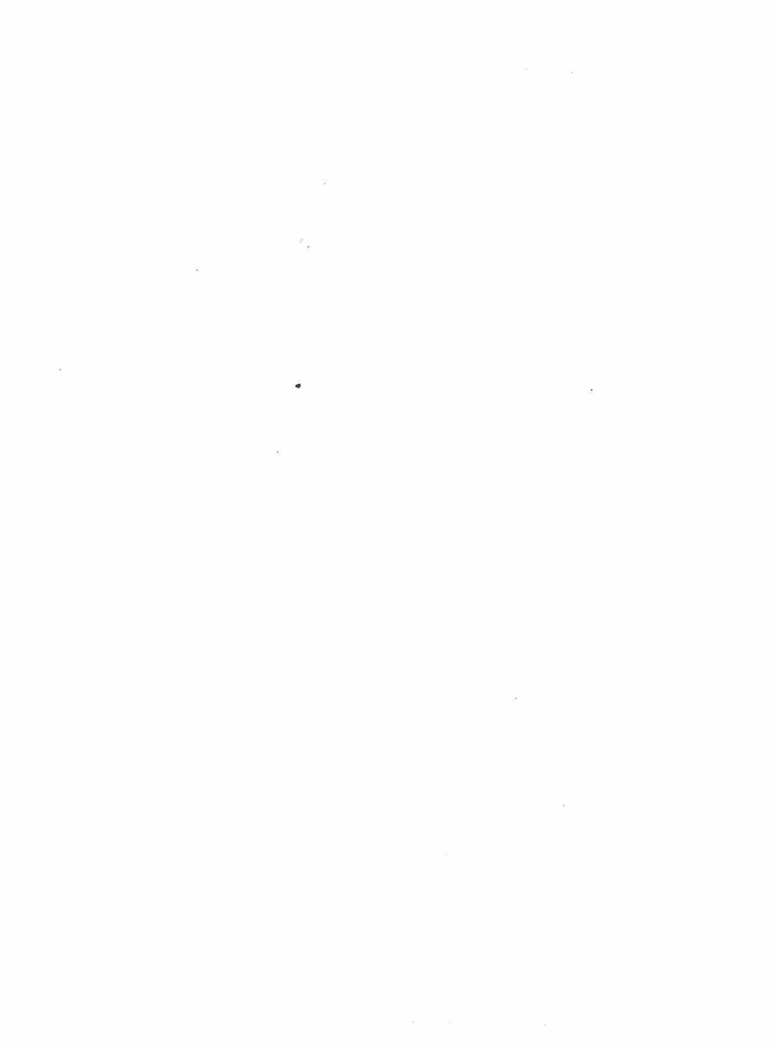
د. أحمد خالد توفيق

الناشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة - القاهرة - ت ٩٠٨٤٥٥



مقدمة

انتهيت من قراءة بعض الأوراق العلمية ، وشعرت بـ (كاللَو) العينين .. ذلك المرض لم يصفه أطباء العيون قط ، لكنَى واثق من وجوده ..

عيناى شبيهتان بقدمين مشتا أميالاً فى حذاءٍ ضيق .. وحين نزعت الحذاء - عويناتى - وجدتهما ملتهبتين منتفختين تنبضان ألمًا وإرهاقًا .. وقد تكوَن (كاللَو) قبيح فوق كل منهما ..

يسألنى البعض : ألست متقاعدًا ؟ لماذا ترهق نفسك بالدراسة إذن ؟

أقول لهم - فى كبرياء - : إننى تقاعدت لكننى لم أمت .. وأنا سأظل تلميذًا منبهرًا بالعلم حتى يحملوننى إلى القبر ..

إن الإنسان الميت هو الذى كف عن التعلم واكتساب الخبرات .. ولهذا ترون أننا محاطون بالموتى الأحياء طيلة الوقت ، لكننا لا ندرك ذلك .. وأشنع المسوخ طرًا هو الميت الذى لا يبدو كذلك !

مازلت طفلاً مفتونًا بكل هذا التقدم العلمى فى

الأعوام الأخيرة .. وكل هذه الطلاسم عن (الهندسة الوراثية) و (سلسلة البوليمريز) و (العلاج بالجينات) و (كاميرا جاما) .. كل هذه الأسرار المقدسة التى لو سمع عنها (ماكس ليبمان) أو (لستر) لتحولا إلى قرويين ساذجين ..

الآن دعونى أحك لكم قصة رهيبة جديدة ..

إن السرد الكلامى يتعب اللسان ، لكنه يرحم العينين ..

اسمحوا لى بأن أطفئ الأضواء جميعًا ، وأسترخى فى مقعدى الأثير الوثير .. سأغلق عينىَ لأريحهما ..

سأحكى لكم اليوم قصة أخرى لا دور لى فيها سوى السرد .. إنها لا تتحدَث عن أسطورة مصاص دماء .. ولا أسطورة مذءوب .. ولا أسطورة نبات قليل التهذيب .. ولا أسطورة وحش عائد من زمن سحيق ليجعل الحياة لا تُطاق .. ولا ......

إن هذه الأسطورة تختلف .....

إنها ..... أسطورتنا .....

★ ★ ★

١ ـ أسرتنا ..

حين انتهيت من صياغة قصة (إيجور تاركوفسكى) وجنراله النازى ، شعرت براحة كبرى ..

لقد كان الخطاب طويلاً حقًا كتب فى مائة وعشرين ورقة كبيرة ، وبخط صغير جدًا .. وأعتقد أن طوله عند الطباعة سيقترب من الأربعمائة صفحة .. وأنا أحسد هذا الـ (إيجور) على صبره وحماسه .. وأحسد نفسى أنا على مثابرتى فى تهذيب الأسلوب بعد ترجمته طبعًا ..

وهكذا استطعت أن أكوم الخطاب فى (دوسيه) خاص لأغراض كهذه ، ودفنته فى درج مكتبى الأيسر السفلى الذى أفتحه كلما مرّت أربع وثلاثون سنة ..

وبدأت التفتيش عن خطاب آخر مناسب ..

تجاهلت ـ بالطبع ـ كل الخطابات عن (العفاريت فى دورة المياه) و (التليفزيون المسكون) و (القط الذى يطير) ..

تجاهلت كذلك كل الخطابات المتعلقة بالجان والمسّ ..

أنا أومن بالجان ، لأن القرآن الكريم ذكرهم بوضوح ..

لكن الموضوع معقد وملىء بالأقاويل ، ولا أريد التدخل فيه بالنفى أو التأييد حتى لا يُساء فهمى .. ويكفينى أن خبراتى مع الجان محدودة جدًا ، فلست خير من يتحدث عنهم بالتأكيد ..

آه ! أخيرًا هذا الخطاب يصلح ..

★ ★ ★

هذا الخطاب من مصر ..

الخط على المظروف ردىء نوعًا ، وأنا أحب الخطوط الرديئة لأنها تشى بصدق وجدانىَ .. وانفعالية لم تُهذَب بعد ..

إن الخط الجميل يكشف عن إنسان يرشح أفكاره بدقة قبل أن تلامس الورق ، ولربما أعجبت بسلوك وتهذيب لورد إنجليزى .. لكنى - بالتأكيد - أفضل قضاء أمسيتى مع شاب مصرى عادى جدًا يتكلم حين يريد الكلام .. ويضحك حين يروق له الضحك ..

المحافظة هى (..........) ..

اسم المرسل هو : (هـ) ..

(لست فى حلَ من ذكر الأسماء كاملة مادمت أكتب لقارئ العربية) ..

وعلى كل حال .. الخطاب طويل .. طويل جدًا ..

أقرب إلى كراس متوسط الحجم ..

وبسهولة عرفت أن مرسلته أنثى .. أنثى متوسطة التعليم تخطئ فى قواعد اللغة العربية كما يخطئ فيها الخواجة (جونسون) نفسه .. كما أنها تعانى مشكلة لا حلَ لها بالنسبة لحرفى (الذال) و (الزاى) .. فتكتب (زنب) و (زالك) .. وتكتب (رزين) و (ذاهي) ..

أردت ـ فقط ـ أن أضعك فى الصورة ..

والآن .. تعال نطالع الخطاب معًا ..

* * *

(عذيذى) د. (رفعت) :

تحية طيبة و (بعض) ..

(ملحوظة : سأبدأ التصحيح اللغوى الآن حتى لا أضايق القارئ) .

طالعت بعض مغامراتك الشائقة فى عالم الأشباح والأرواح ، كما استمعت إلى حلقات من برنامجك الإذاعى [بعد منتصف الليل](★) . وقد أحببت صوتك الوقور الرزين ، وآراءك الهادنة فى كل ما تسمعه عبر سلوك الهاتف ..

الآن قررت أن آخذ رأيك فى المشكلة التى أواجهها .. مشكلة لا حلَ لها للأسف لأنها حياتى ذاتها ..

(★) تعرفون المزيد عن هذا البرنامج فى الكتيب العشرين ..

فلـو كنت تملـك حـلاً ؛ أرجـو أن ترسـله لــى علــى العنوان المرفق .. أو كنت لا تملك فلا بأس ..

كل ما أطلبه منك هو الثقة بهذه السطور ، والسرِّية التامة .. فهذه الحقائق ليست للنشـر فـى أيـة صـورة مقرونـة بأسماء أبطالها الحقيقيين ..

لا بد أنك عرفت محـافظتى مـن العنـوان ، وعرفـت كذلك أننى أقيم فى قرية صغيرة قريبة مـن المركـز .. هى (......) ..

اسمها مضحك .. أليس كذلـك ؟ يقـول البعض إنـه مستوحى من اسم فرعونى قديم .. ويقول آخرون إنــه تحويـر لتسمية أطلقهـا الجنرال (مينـو) بالفرنســية على موقع هذه القرية ..

لا يهم .. المهم أنها موجودة .. وأننا نعيش فيها .. وأجرؤ على القول: إننى أحبها ..

* * *

والآن دعنى أعرِّفك أفراد أسرتى الصغيرة ..

أولاً : أنـا (هـ) .. فـى الســابعة والعشـرين مــن عمرى .. آنسة .. حاصلة علــى دبلـوم متوسـط لكنــى لا أعمل ..

من المعتـاد هنا أن تقول كاتبة الخطاب : يقولون :

إننى حسناء » .. لكنك فى سن تسمح لك بالغفران للغرور البشرى .. لا داعى للتواضع الزائف إذن .. أنا حسناء .. بل أنا أجمل شىء رأيته فى حياتى ..

لماذا لا تتزوج فتاة حسناء حتى السابعة والعشرين من عمرها ، فى قرية تسمى الفتاة عانسًا إذا لم تتزوج حتى سن العشرين ؟!

هذا ما ستعرف سببه بعد صفحات عدة ..

ثانيًا : أمى .. فلاحة عادية جدًا وبائسة .. لا يميزها شىء .. ويقال إنها ابنة خفير العزبة التى يملكها أبى ، لكن أسئلة كهذه لا تطرح .. ولم يجسر أحدنا على سؤالها ..

ثالثًا : أبى .. الثرى الريفى الذى سئم حياة المدينة وعاد إلى الجذور .. يملك عزبة مترامية فى القرية ، وعلى وجهه الذى زانته السنون بتجاعيد الخبرة .. ترى ملامح عزَ قديم لا شك فيها .. وترى وسامة وملاحة لم تغمرها الأعوام بعد .. لقد انساب النهر القديم ليروى الفروع .. والوسامة القديمة وجدت فروعها فى بناته ..

يقال أيضًا : إن أبى كان متزوجًا من إحدى وصيفات الأميرة (فوزية) .. وهو وضع اجتماعى

كان يثير الحسد فى مصر قبل الثورة .. ثم إن المرأة المتعالية شامخة الأنف فقدت صوابها مرة .. قالت لأبى إنها أخطأت يوم تزوجت فلاحًا ابن فلاح ..

صارحها أبى بأنه فخور بجذوره ، وأنه يفضل أن يكون فلاحًا على أن يكون من سلالة لصٍ هرب من (الآستانة) وجاء إلى مصر متظاهرًا بالأرستقراطية ..

ثارت المرأة وأمسكت بكوب الماء ـ وكانا على مائدة الغداء ـ وقذفته فى وجهه .. وكانت هذه آخر غلطة تقارفها فى حقه ..

يقال : إنه أوسعها ركلاً وصفعًا .. ثم طلقها ..

بعد هذا راح يفتش عن فلاحة طيبة تعرف حق زوجها وبيتها .. أو ـ على حدَ قوله ـ أراد زوجة (من وراء الجاموسة) ..

وكانت أمى هى الزوجة المناسبة .. ولم يكن مخطئًا تمامًا ..

رابعًا : شقيقتى (س) .. طالبة فى كلية الآداب بالقاهرة .. فى العادة تقيم فى المدينة الجامعية أكثر أشهر الدراسة .. لكنها الآن معنا فى عطلة الصيف ..

رأيى الخاص أن (س) أقل جمالا منى بمراحل .. وهذا كاف لجعلها فاتنة !

خامسًا : شقيقتى (ن) .. طالبة فى المدرسة الإعدادية .. مراهقة جدًا .. لها كل مزايا وعيوب واهتمامات كل المراهقات الأخريات ..

سادسًا : شقيقى (ى) .. طفل فى الثامنة من عمره .. شديد الذكاء والحيوية .. لكنه - كما هو واضح - (آخر العنقود) كما يقولون .. وبالتالى هو المدلل فى الأسرة باعتباره ذكرًا .. وأصغرنا ، وأنا أرجح أن تربيته خاطئة ، وأنه سيشب سفاحًا أو مدمن مخدرات .. فكلهم يبدءون بذات الكيفية .. لكن من فى بيتنا يجرؤ على انتقاد أسلوب تربية (ى) ؟!

أسرة تراها فى كل مكان ..

فما هو الغريب هنا ؟

ما الشىء المفزع الذى يتسلل إلى أحلامك ليلاً ، فيجعلك تصحو مذعورًا غارقًا فى العرق البارد ؟

سأحكى لك يا د. (رفعت) ..

سأحكى لك أسطورتنا ..

* * *

٢ - معارفنا !

ما كان لأبى أصدقاء كثيرون ..

هذا متوقَع بالطبع .. أنت تفهم شعور أثرياء ما قبل الثورة هؤلاء الذين جاء التأميم ليأخذ منهم ما اعتبروه حقهم الطبيعى .. وكان أبى منهم .. بعد هذا يكون نفور الأصحاب منه تدريجيًا .. ويدخل فى طور التحول ما بين (اللامنتمى) إلى الثورة .. و (المتسلل) إليها .. على حدَ قول أديبنا العظيم (نجيب محفوظ)(★) ..

ربما كان بوسعى أن أعدَ أصحابه على أصابع اليدين ..

هناك الحاج (شعبان) .. خفير العزبة .. ذلك العجوز الأشيب ذو الشارب الكثَ الذى يأتى دومًا فى أوقات غير مناسبة - كالغداء والنوم - ليعطى أبى نقودًا ، أو يعطيه أبى نقودًا .. معًا يتبادلان حديثًا هامسًا من أحاديث (الأعمال) .. وعلى قدر علمى كان (شعبان) دائمًا هناك .. وسيظل ..

هناك - كذلك - (عاصم بك) .. وهو واحد من الأعيان

(★) طبعًا لم تقل الفتاة هذا .. لكنى أحاول توضيح كلامها المفكك ..

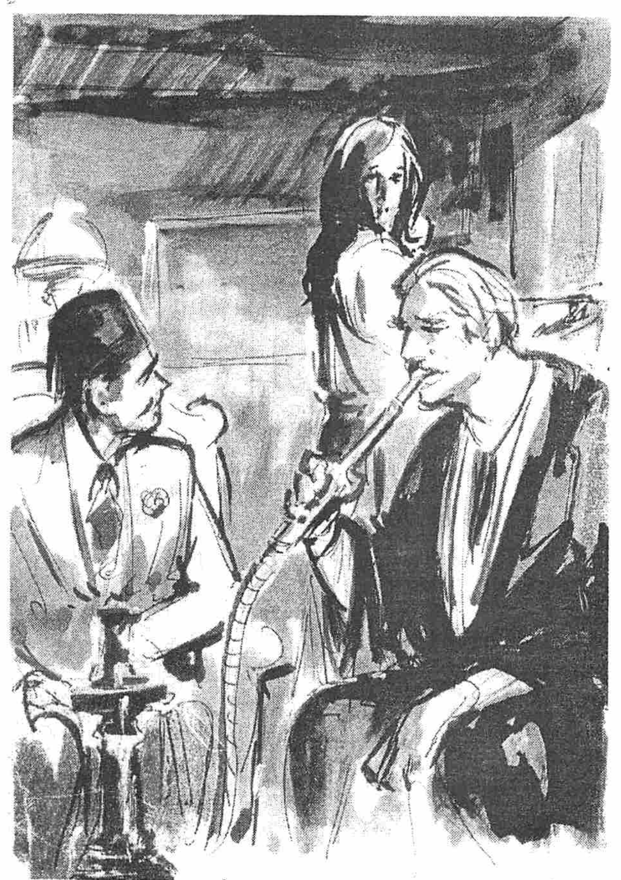
السابقين ، ما زال يعيش فى الماضى حين كان يتنزه مع امرأته فى (النمسا) كل صيف ، ويقضى الشتاء فى (سان مورتيز) .. يرتدى دومًا حلة وردية اللون ، فى جيبها زهرة حمراء ، وعلى رأسه طربوش أحمر فاقع اللون .. يصرَ على ارتدائه منذ أن أطار (أتاتورك) الطرابيش من فوق رءوس الأتراك جميعًا .. ويصرَ على أن عرى الرأس (قلة قيمة) ..

و (عاصم بك) عجوز متصاب .. لا يفهم أن دورة الزمن قد أطاحت بشبابه وماله .. لهذا يرتدى تلكم الثياب المبهرجة .. ويضع ـ صدق أو لا تصدق ـ ماكياجًا كاملاً مكونًا من كريم الأساس والكحل وأحمر الشفاه ..

لكن محاولته هذه تزيده قبحًا وإرعابًا .. كأنه مومياء وضعوا لها ماكياجًا لتبدو حية ..

إن أبى لا يثق بهذا الرجل .. ويؤكد أنه كان وصمة على البشرية فى شبابه ، فمع هذا الرجل لم تجد الثورة ما تصادره .. أضاع الأحمق كل شىء على النساء والشراب وموائد القمار التى يؤكد أنها خضراء دائمًا ..

الخلاصة : من الممنوع على أية فتاة فى الدار أن



إن أبى لا يثق بهذا الرجل . . ويؤكد أنه كان وصمة على البشرية فى شبابه . .

يظهر كعبها عندما يكون (عاصم بك) عندنا ..

تصور أنه قد طلب يدى من أبى !

رآنى مرة واحدة وأنا أناول صينية الشاى للخادمة الريفية .. وكان هذا كافيًا كى يصارح أبى بأنه يشعر بالوحدة ، وأن الوقت قد حان ليجد من تونس وحدته ..

فى كياسة أفهمه أبى أن فارق السن يتجاوز الخمسين عامًا .. وأن حفيدته يمكن أن تنجبنى بسهولة .. ثم بدأ يزداد غلظة وهو يقنع هذا المعتوه بأنه لو أصرّ على هذا فلن يرحب أبى به فى الدار مرة أخرى ..

وهكذا أغلق شيخنا قلبه على حبّه الكسير !

الضيف الثالث من ضيوف أبى مهندس رىّ فى الأربعين من عمره ، يُدعى (محمود أبو طه) ..

رجل مهذب متأنق فى غير إفراط .. وإن كان له عيب خطير هو ولعه بالشعر ..

والشعر الذى يحبه المهندس (محمود) ويكتبه ويقرؤه ـ كلما وجد من يسمع دون معارضة ـ هو شعر المناسبات السخيف .. وأنا لا أفهم السبب الذى يجعل إنسانًا ينفعل بـ (عيد الفلاح) أو (وفاة وكيل

أول الوزارة) أو (عيد المحافظة) ، إلى درجة كتابة قصيدة لا تقل عن ستين بيتًا .. كلها تنتهى بقافية الألف على غرار (إقبالاً ـ آمالاً ـ إجلالاً) أو (شبابًا ـ يبابًا ـ مهابًا) ..

وكل أبياته محكمة لكنها مسطحة خالية من أى شعور .. (كلام موزون مقفى) على حدَ تعريف الشعر فى الكتب القديمة ..

للمهندس (محمود) زوجة لطيفة هى (زينب) .. امرأة متأنقة كزوجها لطيفة المعشر ..

سرعان ما كانت تترك الرجال لمجلسهم ، وتدخل إلى الغرفة التى نجتمع فيها نحن النسوة ، أو تقف معنا فى المطبخ تعاوننا فى إعداد القهوة ..

تلثم أمى على وجنتيها فى اشتياق ، وتداعبها مداعبات ذكية طريفة لا تفهمها أمى بالطبع .. فقط تبتسم كاشفة عن أسنانها المتساقطة وتهتف فى مرح :

ـ « خطوة عزيزة يا (زينب) هانم ! »

وتنطلق (زينب) هانم تقرص هذه .. وتلطم هذه .. وتدغدغ هذه .. و ....

ـ « لقد ازددتِ جمالاً على جمال يا بنت يا (هـ) ..

ترى أى شىء تطعمك أمك هذه المرأة الأريبة ؟ وأنت يا (س) ؟ لقد صرت نحيلة كالقلم الرصاص .. إنك تحرقين نفسك فى الدراسة دون جدوى .. وفى النهاية ستتزوجين وتنسين كل هذا الهراء .. هيه ! صدقينى .. ليس للمرأة سوى البيت .. لن تصيرى (مىَ سلامة) مهما حاولتِ ! »

فتقول لها (س) مصححة :

- « اسمها (مىَ زيادة) يا طانط .. (زيادة) لا (سلامة) .. »

تقول مدام (زينب) وهى تلوح بيدها فى استهتار :

- « قطيعة ! (زيادة) .. (سلامة) .. لا فارق .. المهم هو ما نحصل عليه من سعادة فى حياتنا .. إن الأمر .. اللعنة ! إن زوجى يقرأ قصيدة جديدة بمناسبة عيد الحصاد .. سنعود إلى ديارنا مع الفجر .. تبًّا !.. وأنت يا بنت يا (ن) .. تزدادين جمالاً .. ترى هل بلغت مبلغ النساء بعد ؟ هل أخبرتك الحاجة أم (هـ) بما سوف يطرأ عليك من ..... ؟ »

فتقاطعها أمى فى حزم باسم :

- « حنانيك يا (زينب) هانم .. لا أريد أن أفتح

عينيها على أمور كهذه .. إنها مجرد طفلة .. »

وهنا نسمع صوت الزوج يناديها من قاعة الضيوف ، فتسوى ثيابها فى عجلة ، وتلثمنا من جديد ، وتعود إلى الثرثرة :

ـ « يا (زينب) ! »

ـ « إن بعلى ينادينى .. يا للأسف ! كانت قصيدة قصيرة .. والآن أنا مضطرة إلى العودة .. سلام يا بنات .. و ... »

ـ « يا (زينب) ! »

ـ « ألن تزورينا أبدًا يا أم (هـ) ؟ وعدتنى بهذه الزيارة منذ أعوام ولم تفى بها .. »

ثم تنظر نحونا وهى تشير لأمى :

ـ « أمكن امرأة كسول ! »

فأقول أنا مدافعة عنها :

ـ « إنها تضلَ الطريق لو أبعدتها ثلاث خطوات عن الدار .. فهى لا ترى الشارع أبدًا ... »

ـ « يا (زينب) ! »

ـ « اللعنة ! » ـ تقول وهى تلثمنا للمرة الثالثة ـ : « علىَ أن أنصرف الآن وإلا كان الطلاق حتميًا ! »

ويغـادر هذا الإعصـار الصـاخب الظريف مطبخنا ، ونسمع عبارات اللوم من الزوج ، وعبـارات الاعتـذار الحارة من الزوجة ..

عندئذ تتنهَد أمى .. وتغمغم :

ـ « بنت حلال حقـا ! »

وتدمع عيناها .. ولا تسـألنى عن السبب طبعًا .. إن كل أم فى الريف دامعة العينيـن حيـن تبكـى وحيـن تضحك .. يقتلها الحزن على من ماتوا مـن أحبائهـا ، ويقتلها القلق على من عاشوا من أبنائها .. إن الحزن هـو شـعيرة أساسية مـن شـعائر الشـخصية المصريـة خاصة الأمهات .. وهن يشعرن بذنب كبير حين يسمحن للمـرح بـأن يتسلل إلـى نفوسـهن .. تعرف هـذا مــن العبارة الخالدة اللواتى يختمن بها ضحكهن من القلب :

ـ « اللهم اجعله خير ! »

كأن الضحك ذنب يستحق عقابًا فادحًا ..

★ ★ ★

يأتى بعد هذا د. (نجيب) من أصدقاء أبى .....

وهـو رجـل وقـور جـدًا .. صمـوت كقـبر .. لكنـه يصغى دون ملل إلى شكوى أبـى التـى لا تنتهـى عن مشاكله مع النقرس أو التبوّل ..

فى مرة جرحت رأسى جرحًا بليغًا وأنا طفلة ، وجاء د. (نجيب) حاملاً خيطًا أسود وإبرة .. و .... كان الألم لا يوصف .. لكنى تحملت حتى لا أبدو تافهة فى عين هذا الرجل الفخم ..

كان يدخن الغليون باستمرار .. وكان أبى و (عاصم بك) يدخنان (النارجيلة) .. وكان المهندس (محمود) يدخن لفافات التبغ .. لهذا كان لدارنا عبق معين لن أنساه ما حييت ، ولا يفارق الغرف وقطع الأثاث إلا فى عيدى الفطر والأضحى حين يتم تنظيف البيت كله .. وفتح النوافذ التى قلما تفتح ..

عندئذ كنت ترى أمى و (أم شفيق) ـ الخادمة الريفية قوية العضلات كرجل ـ عاكفتين على الكنس وغسيل الأرضيات ، بينما فتيات الدار يقمن بفك الستائر وغسل أغطية الأرائك ..

لم يكن لدينا فى الدار من خدم سوى (أم شفيق) و (هناء) .. والأخيرة شابة نحيلة شاحبة كالحرباء ، بلهاء قليلاً تعيش فى عالم لا يصدق من الأكاذيب التى تلفقها ببراعة عادية ..

★ ★ ★

تسألنى عن أقاربنا ..

أقول : إنهم ليسوا كثيرين ..

وهؤلاء - غير الكثيرين - يزورونا لمامًا وغبًا(★) ..

هناك خالى (طه) وخالى (عزت) .. وهناك عمّ لى يأتى كلما مرّت عشرة أعوام ، وكل هؤلاء الأقارب يأتون لفترات لا تتجاوز نصف الساعة ، وكلهم رسمىّ جدًا .. لا يمزح .. ولا يسأل عن أحوالنا ، أشك فى أن أحد هؤلاء يعرف أسماءنا بدقة .. كما أننى لا أذكر لقاء حدث بين أبى وخال لى .. أو أمى وعمى .. ولم أر ابناءهم قط ....

★ ★ ★

أما عن صداقاتنا فإن لك أن تخمن أنها معدومة ..

سنون طويلة قد مضت منذ كانت لى صديقة ما ..

أمر عجيب .. لكنه - بالتأكيد - ليس مفزعًا ..

فما هو السرّ الذى يجعل روايتى هذه جديرة بإثارة هلعك ؟

أنا لم أفرغ بعد يا د. (رفعت) ..

مازلت أحكى لك أسطورتنا ..

★ ★ ★

(★) على فترات متباعدة ..

٣ ـ معتقداتنا ..

يقع منزلنا عند أطراف القرية ..

ويشابه فى تركيبه وأثاثه ونمط بنائه الشكل الذى اصطلح الناس على تسميته (دوّارًا) ..

المساحات الواسعة ، وألواح الخشب التى تحمل السقف ، والأثاث المتين المريح الذى يفتقر للأناقة ، وقد تمزقت أجزاء من كسوة المقاعد وتم تغطيتها بسجادة الصلاة ..

كل هذا يحمل طابعًا حميمًا محببًا دون شك ..

وحين تغادر الدار تمرّ عبر فسحة تنتثر فيها أشجار الليمون والبرتقال ، وثمة كرمة عنب صغيرة .. ثم تعبر بوابة خشبية قديمة إلى أرض فضاء .. خلف هذه الأرض تقع مقابر القرية ..

* * *

لماذا يخاف الناس المقابر ؟

لم أستطع أن أفهم هذا قط ..

لم أعرف فى حياتى مكانًا أكثر أمنًا وسلامًا من مقابر قريتى .. أعرفها شبرًا شبرًا وأحفظ كل كتابة

ساذجة بالطبشور على شـواهدها .. وأعـرف عـدد المزروعات أمام كل قبر ..

لقد أمضيت صباى الأول هاهنا ، ألهو مع (س) و (ن) ، ونلعب المساكة فى هذا الفضاء العريض ..

وها هنا رحت أراجع دروسى قبل امتحان السنة الإعدادية ، وقد تناثرت الكتب حولى ، ورحت أكرر بلا كلل تاريخ الدولة العثمانية وكيف كان (محمد على) يلعب بالبيضة والحجر .. كل هذا وأنا أخشى أن يهبط الظلام علىَ فلا أتمكن من مراجعة الكتاب كله .. رائحة زهور البرتقال قادمة من مكان ما ، ورائحة الهواء الجافَ ، وأعراض الربيع التى تتحرَك فى روحى المراهقة فتلسعها بألف سوط ..

عندئذ كنت أبكى دون سبب ..

ولماذا ـ إذن ـ يخاف الناس المقابر ؟

* * *

لكننا لم نذهب إلى المقابر قبل الظهيرة قط ..

كنا لا نخاف الموتى .. لكننا نمقت البشر الأحياء كثيرًا .. وكلهم كانوا هناك فى فترة الصباح قبل أن تعتلى الشمس متن الأفق ..

كنت أعرف بعض الوجوه والأسماء ..

فهذه (هند) وهذه (عفاف) وهذه (عواطف) وهؤلاء أمهاتهن .. بعضهن نصف فلاحات مثلنا .. وبعضهن فلاحات تمامًا مثل (أم شفيق) ..

لكنهن كن يتحاشيننا بذات الأسلوب الذى نتحاشاهن به .. إن هى إلا هزّة رأس عابرة منهن لنا .. وعبارة على غرار :

- « كيف حالك يا (هـ) ؟ سلامنا للحاجة .. »

لم نكن متعاليات .. لكن أبى علمنا أن الآخرين شرّ دائمًا .. وأنه كلما قلّ عدد معارفك كلما ازددت حرية وسلامًا ..

ربما كان لهذا جذور من صدمته بعد زيجته الأولى .. وبعد التأميم .. والنتيجة هى أننا نشأنا منغلقات كالقواقع .. تعلمت فى ثلاث مدارس ، لكننى لم أحظَ بصديقة واحدة يمكن أن أدعوها صديقة .. كان هناك ذلك الانبهار الأولى بسحرى وجمالى .. وتصمم إحداهن على تعرّفى .. فلا تظفر منى سوى بالصمت والفتور ..

الأسرة .. الأسرة .. هى الشىء الوحيد الجدير بالثقة والذى يستحق أن نعمل جميعًا من أجله ..

هكذا رُبّينا .. وكذا نشأنا .. وهذا هو ما صرناه ..

★ ★ ★

كانت أمى تؤمن بالسحر كثيرًا ..

فهى من النسوة القرويات اللواتى لم ينلن أى تعليم .. وكل ثقافتهن تنحصر فيما سمعنه من جداتهن عن (خاتم سليمان) و (العمل) و (الأثر) و (العفاريت مشقوقى الأعين) و (طاقية الإخفاء) .. وما إلى ذلك ..

كانت ترى العفاريت فى كل مكان .. وتؤمن أنهم معنا فى كل ركن من الدار .. وأحيانًا كانت توجه التحية لهم ..

فإذا جاء يوم الجمعة تصاعدت رائحة البخور .. ودوى صوت طقطقة الملح ..

فإذا مرضت واحدة منا .. أشعلت أمى البخور وراحت ترقيها بعبارات غريبة جدًا معقدة على غرار :

- « يا فسوخ يا فسخانى .. امنع عمل اليهودى والنورانى .. واللى له غرض تانى ..! »

ثم تحرق عروسًا بدائية تصنعها من الورق ، وتغرس فى كل موضع من جسدها دبوسًا وهى تكرر عبارات الرقية المسجوعة ..

حين ينتهى الاحتراق كنت تجد كتلة من الرماد الأسود لها شكل ما .. أى شكل عشوائى ..

عندئذ تهتف أمى فى انتصار إن الرماد اتخذ شكل (أم هند) أو (أم خديجة) أو أى أم أخرى من الجيران .. وتؤكد لنا وجهة نظرها :

- « هل ترون ؟ ها هى ذى العينان .. والأنف المحدب .. والشعر المجعد .. إنها هى .. »

الواقع أن إيمانها هذا كان يتكفل بجعلنا نرى ما تعنيه .. وتدريجيًا نجد أن الرماد هو بعينه (أم هند) أو (أم خديجة) .. وهذا دليل لا يُدحض على كونها هى من حسدت مريضتنا أو مريضنا ..

أما أن يتثاءب الشخص فى أثناء رقيه فهذا دليل آخر على كونه محسودًا ..

★ ★ ★

فى يوم من الأيام جاء صياد حاملاً سلَة بها بعض الأسماك التى اصطادها من الترعة المجاورة ..

كانت هناك بعض أسماك (القراميط) حيَة تتحرَك وتتلوى .. وكانت أمى تتفحص السلة حين هتفت فى هلع :

- « يا للكفرة .. أبناء الكفرة ! »

والتقطت بكفها سمكة تتلوى .. ورفعتها فى الضوء لترينا إياها ..



والتقطت بكفها سمكة تتلوى . . ورفعتها فى الضوء
لترينا إياها . .

كانت هناك كتابة على جلد السمكة بحبر لا يمكن إزالته .. ولما وجدتنا لم نفهم بعد ، هتفت فى جزع :

ـ « هذا عمل ! من أنجس أنواع الأعمال وأبشعها .. الكتابة على جلد (القرموط) .. لا يمكن العثور عليه أو فكه .. إن البائس الذى كتب هذا العمل من أجله لا يجد ساعة راحة واحدة .. »

وبيد خبيرة وقسوة لم نعهدها فيها .. تناولت سكينًا عملاقًا وراحت تقطع السمكة إلى شرائح ..

ثم ناولتها للبائع فى تنهيدة خلاص :

ـ « سأنقدك ثمنها .. لكن عليك أن تلقى بها إلى الترعة من جديد .. »

هزَ الرجل كتفه فى لا مبالاة .. وحمل سلته وانصرف ..

هذا هو المناخ الذى عودتنا أمى عليه ، وقد يبدو كل هذا نوعًا من السخف والهراء ؛ لكنه كان حميمًا وجزءًا لا ينفصل عن كيانها الطيب القدرى .. لهذا أحببنا كل هذا لأنه منها ..

★ ★ ★

كان لا بد أن يطفو السؤال على سطح وجدان أمى .. لماذا لم أتزوج بعد برغم بلوغى السابعة والعشرين من العمر ؟

بل ـ الأدهى ـ لماذا لم يتقدم لى أحد قط ؟!
كانت تعرف الجواب .. كلنا كان يعرف الجواب ..
لكنها ـ كالعادة ـ راحت تفتش فى دياجير الطلاسم والأحجبة والأعمال المدفونة على عتبات البيوت ..
بضع كلمات تبادلتها مع (أم شفيق) .. ثم قامت المرأة بما طلب منها .. وجاءنا الشيخ (بسيونى) الذى يقطن على مرمى حجر من دارنا .. وهو رجل أشيب معمَم خبيث الرائحة والنظرات .. وأنا لا أمقت فى العالم شيئًا مثل هؤلاء النصابين الذين يتظاهرون بالتدين ؛ بينما هم يمارسون السحر الذى قرنه الإسلام بالكفر ..
جاء الرجل وأشعل الكثير من البخور ، وقرأ بعض قراءات زعم أنها باللغة السريانية ..، ثم أعلن أن هناك (عملاً) مدفونًا فى المقابر ، وأن إحدى الجارات الحاقدات علىَ قد صنعته لى وأن هناك شروطًا لاستخراجه ..
صحت فى أمى بعصبية :
ـ « ماما .. لن تصدقى هذا السخف ! »
ـ « ش ش ش ش ش ! »
إصبع سبابة على شفتيها ينذرنى من التمادى فى

هرطقتى ، وراحت تصيخ السمع لما يقوله هذا المشعوذ ..
وحين عاد أبى إلى الدار ، صارحته بما حدث اليوم ..
كنت أعرف أن هذا سيثير إعصار حنقه على أمى ..
لكنى لم أرد أن يدور هذا الهراء فى داره دون علمه ..
وعلى الفور نادى أمى ، وقد ارتسمت الشراسة على ملامحه .. ثم هتف محنقًا :
- « إذن أنت تسمحين لهؤلاء النصابين بدخول الدار فى غيابى .. وتجعلينهم يعرفون من أسرارنا الخاصة ما لا يرى نور الشمس .. ثم تثرثرين فى كل صوب أن ابنتك صارت عانسًا .. إن هذا الرجل كافر يا امرأة .. كافر لأن (من نفث فى عقدة فقد كفر) .. »
بالطبع لم تفهم أمى معنى (النفث فى العقد) برغم أنها تستعيذ بالله من (شر النفاثات فى العقد) عدة مرات يوميًا ..
كان الدرس قاسيًا مريرًا لكنه ضرورى ..
ومن يومها لم تعد أمى لهذا الحديث .. لكنى أعرف أننى أسبب لها مشكلة دائمة .. إن العانس القبيحة محتملة .. أما العانس الحسناء فأمر لا يمكن السكوت عليه ..
المشكلة التالية كانت أختى (س) التى ستتخرج

قريبًا .. ولن يطرق بابها عريس .. لماذا ؟ كلنا يعرف السبب لكننا لا نعترف به لأنفسنا ..

وأمى لا تعترف بكل الهراء المثقف عن استقلال المرأة ودورها البناء فى المجتمع .. و ... و ... إن كل الغرض من وجود المرأة فى الحياة عندها هو أن يتزوجها أحدهم .. وأن تلد وترضع وتربى نساء أخريات يتزوجهن آخرون .

* * *

الحقَ يا د. (رفعت) أن لى جانبى العاطفى ..

لم لا ؟ ألست أنثى من لحم ودم ؟

سأتجاوز عن خيالات المراهقة المبهمة التى تمزج حب الطبيعة .. بحب الحيوانات الصغيرة .. بحب الأغانى .. وتصنع من كل هذا كيانًا غامضًا بلا اسم أهيم به حبًا ..

كانت عاطفتى تجد متنفسًا لها فى معاونة عنزة تلد .. أو وضع بضع هريرات وليدة فى صندوق من الورق المقوى ، والخروج بها إلى الشمس .. أو وضع زهرة فى شعرى ..

والحقيقة أن صورة الرجل فى ذهنى كانت دوما صورة أبى .. الأمر الذى كان عسيرًا أن أجده فى أى فتى من سنى ..

ثم بدأت أنمو .. وأفهم أن هناك رجالاً آخرين غير أبى .. ومن المفهوم أن من حقى أن أحصل على أى واحد منهم عريسًا فى اللحظة التى أقرر فيها ذلك ..

وكان فى قريتنا عدد لا بأس به من الشبان المتعلمين وعلى قدر ما من الثراء .. ومنهم من هو جميل الصورة ..

لكن واحدًا منهم لم يتقدم لى .. ولا تسأل عن السبب ..

وعندما ظهر (ع) فى حياتى ؛ كنت قد بدأت أعدَ نفسى لرحلة الوحدة الأبدية دون رفيق درب ودون أطفال ..

كان (ع) وجهًا جديدًا فى قريتنا .. مدرسًا شابًا جاء من المركز لمدرسة القرية الابتدائية .. وكان يسافر يوميًا - إن كانت رحلة الدقائق العشر إلى المركز تدخل فى نطاق السفر - رافضًا عدة عروض للإقامة فى القرية ..

لم يكن متزوجًا ، وكان لطيفًا مهذبًا ، حرك حلم الزواج لدى كل بنات القرية الحاصلات على شهادة أقل من شهادته .. أو غير المتعلمات اللواتى تمنين لو كان يرغب فى زوجة أمية ..

دومًا كانت عدسة المجهر مسلطة عليه ، وبدأت الفتيات يترددن أكثر من اللازم على المدرسة لاصطحاب أخوتهن .. وراحت الأمهات يزرن المدرسة - بحجة الاطمئنان على الأنجال - ليتفقدنه بنظرة ناقدة مدققة .. هل يصلح لابنتى فلانة ؟

كان خجولاً .. وحين يحمرّ وجهه فى هذه المواقف كانت كل أم تقرر أنه يصلح بالتأكيد لابنتها ..

إن المدرستين الإعدادية والابتدائية متلاصقتان فى قريتى .. وقد اعتدت أن أقصد الثانية فى ميعاد الانصراف لأصطحب أخى (ى) .. ثم أنتظر (ن) عند خروجها من الأولى .. ونعود معًا إلى الدار ..

وكان ضروريًا أن يرانى (ع) .. وبالتالى يهيم بى حبًا ولا ألومه كثيرًا على ذلك ..

وحين قابلت أخى (ى) فى ذلك اليوم عند مغادرته المدرسة ؛ كان - كعادته - يرتدى المريولة القذرة التى مسح بها الأرض مسحًا .. وشعره ثائر مبعثر .. والجروح تملأ وجهه وساقيه .. وقد تمزقت يد حقيبته فتدلت الأخيرة على الأرض ..

عندما ترى (ى) عندما يدخل المدرسة صباحًا ترى أحد أبناء الذوات المتأنقين .. لكنه لا يختلف عن

أترابه ذوى (المخالى) عند مغادرته للمدرسة .. وهذا يسرَه لأنه يلغى اختلافه عنهم .. ولأنه - كديدن من فى مثل سنه - يعتبر الأناقة والنظافة علامتين على الأنوثة والتدليل ..

قال لى (ى) ضاحكا :

- « الأستاذ (ع) يسأل عنك ! »

احمرَ وجهى - لأنى شعرت بالدم يصفر فى أذنى - وتساءلت :

- « لماذا ؟ »

- « لا أدرى .. »

- « وماذا قلت له ؟ »

- « أجبت عن أسئلته طبعًا .. »

لدغته .. واعتصرتِ أذنه بين إبهامى وسبابتى ، معلنة أنه ليس رجلا ، وأن المفترض ألا يفشى أسرار شقيقاته ، ما دام هذا المعلم لا يمت لنا بصلة قربى ..

لكنى - بينى وبينك يا د. (رفعت) - لم أكن غاضبة إلى الحدَ الذى تظاهرت به ..

★ ★ ★

سأوفر عليك الملل إذن ، ولا أطيل فى وصف محاولات المدرس الشاب لكسر حاجز الخجل والتحفظ كى يتقرب إلىَ ..

إن الأطفـال والحيوانـات هم أفضل ذرائع لكسر هذا الحاجز .. وكلتا الطبيعتين متوافرتان فى (ى) الـذى هو طفل وقرد صغير فى نفس الوقت ! وكان لا بد من تدرج الحوار بيننا حول (ى) .. تحصيله الدراسى .. شيطنته .. إلخ .. إلخ ..

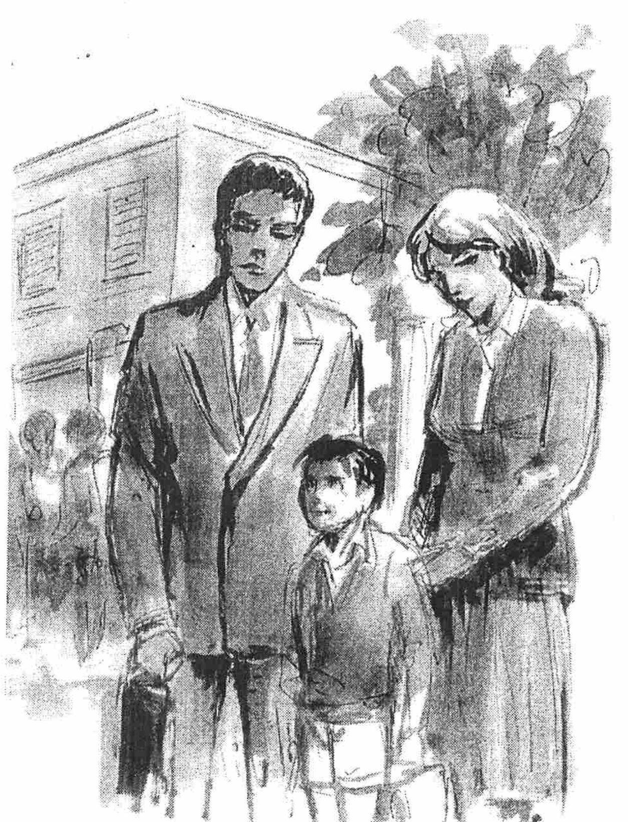
وبعد ستة لقاءات كنا قد غدونا متعارفين ..

لا أعنى باللقاء ما تعنيه اللفظة .. إن هى إلا عشـر دقائق وقت انصراف التلاميذ ، وسط قطعانهم الثائرة ، جوار بوابة المدرسة ، ويتم الحوار همسًا وسـريعًا .. وكلانا ينظر إلى جهة أخرى كأنما يوشك على الرحيل ..

هل ملت إليه ؟

لا أدرى حقًا .. إن اضطراب العواطف فـى بيئـة منغلقة يدعوك إلى خداع نفسك سريعًا .. يكفيك وجود شخص مناسب تركب عليه هذا الحشد مـن العواطـف الجاهزة المتراكمة فى صدرك ..

سرعان ما تظهر أغنيـات (أم كلثـوم) .. وقصـائد (ناجى) .. والوردة الحمراء إياها .. كأنما كانت هـذه الأشياء تنتظر ظهور الشخص المناسب فـى المكـان المناسب ، فلا تمهلك لحظة حتى تسأل نفسك : أترانى أحبه حقًا ؟



يكفيك وجود شخص مناسب تركب عليه هذا الحشد من العواطف الجاهزة المتراكمة فى صدرك . .

أنـت نـاضج يـا د. (رفعت) ويمكنـك فهمـى دون عناء ..

قال لى (ع) ذات مرة فى لقاءاتنا المسروقة :

- « إن (ى) ولد ذكى .. لكن الأطفال يضايقونه .. »

- « يضايقونه ؟ »

- « إنهم يسخرون منه .. كأن هناك سرًّا ما يتعلق بأسرتكم .. وهم يهددون بإفشائه ! »

قلت فى ضيق :

- « لو كان هناك سرَ فأرجو أن يعلنوه .. »

- « لم أقصد مضايقتك .. لكن هذا هو الانطباع الذى خلَفوه لدىَ .. »

وساد الصمت الثقيل هنيهة .. بعدها كرَر أسفه ..

كانت هذه هى مشكلتنا ..

إننا نختلف عن الآخرين فى أشياء كثيرة ..

ومن هنا جاءت أسطورتنا .....

★ ★ ★

٤ ـ صداقاتنا ..

سوف أقص عليك الآن قصة طريفة عن شقيقتى (س) ..

أنت تعرف أنها تقيم فى القاهرة .. فى مسكن للطالبات طيلة فترة الدراسة ، حتى إذا جاءت العطلة عادت إلينا ..

إن (س) أقل جمالاً منى وأقل ذكاء .. هذه حقيقة .. ربما هى طالبة فى الجامعة .. لكن الشهادات لا تدل على الذكاء أكثر مما تدل المسبحة على الإيمان ..

لكن (س) أكثر اندماجًا فى المجتمع ، وأكثر تقبلاً لفكرة وجود الآخرين ..

★ ★ ★

غرفتها مزدوجة فى المسكن ..

تقيم معها طالبة فى كلية العلوم تدعى (نرمين) ، وهى فتاة هادئة رزينة صموت ..

وفى المساء كانت الفتاتان تجلسان ـ كل واحدة على فراشها ـ تدرسان وقد انتثرت كتبهما على

الفراش ، ولا بأس من تبادل بعض الأحاديث .. أو قيام واحدة منهما بمساعدة الأخرى على تصفيف شعرها ..

فى الحادية عشرة مساء يُدق الباب ..

وتدخل إلى الغرفة (هيام) ..

(هيام) طالبة علوم فى عامها النهائى .. جميلة إلى حد لا يصدق - على حد قول (س) - تتمتع بروح دعابة هائلة ..

وسرعان ما تخلع خفيها ، وتثب إلى الفراش جوار (س) .. ربما تدخل معها تحت الغطاء .. وتصرخ فى مرح :

- « البرد قاتل .. إن حجرتكما أدفأ حجرة فى هذا المنزل .. »

وتنهض (نرمين) ضاحكة لتعدَ ثلاثة أكواب من الشاى الساخن .. ووجبة مرتجلة من الفول والبيض وأى شىء يتصادف وجوده فى الحجرة ، فلو وجدت حذاء قديمًا لأضافته إلى الخليط ..

لحظات من المرح لا يمكن أن يمرَ الليل بدونها .. ومن أجلها تنتظر (س) و(نرمين) نهاية اليوم فى شوق ..

إن (هيام) تعانى من أن زميلتها فى الحجرة ثقيلة الظلّ تفتقر لروح الدعابة .. وهى - تقول (هيام) - طالبة طبّ تثير هلعها بكل العظام التى تكدسها فى الحجرة .. عظام بشرية طبعًا ..

- « إن طالبات الطب هؤلاء » - تقول (هيام) - « يفقدن أنوثتهن وشبابهن سريعًا .. يصعب علىَّ أن أصدق أن شريكة حجرتى هى فتاة فى ميعة الصبا .. بل هى أقرب إلى شيخ طيب القلب لا يكف عن تفحصى فى حكمة من فوق إطار عويناته .. »

وتتربع على الفراش لتحسو جرعة أخرى من الشاى وتقول :

- « ألن تأتيا إلى حجرتى أبدًا ؟ »

فتقول (نرمين) فى استبشاع :

- « بعد كل هذا الوصف ؟ مستحيل .. »

ثم إن حجرتها فى الطابق الثالث .. ومنذ أن أنشئ هذا المسكن والعلاقات على غير ما يرام بين طلبة الطابق الثانى وطلبة الطابق الثالث .. فهذا الأخير تعمره طالبات الطب المتحذلقات المغرورات قليلاً .. واللواتى يتضايقن لو لم تناديهن الأخريات بلقب (دكتورة) ..

الخلاصة أن هذا الثالوث وجد فى الصداقة ما ينسيه مرارة الغربة ..

★ ★ ★

حادث تافه وقع فى كلية العلوم التى تدرس فيها (هيام) .. حادث لا أهمية له لكنه صخرة تقع فى بركة الملل اليومى محدثة دوائر ودوائر ..

لقد طلق أحد الأساتذة شناك زوجته ، ليتزوج من طالبة عنده تصغره بثلاثين عامًا ..

وكان هذا الحادث شهيرًا فى تلك الآونة ، وتسرَب خبره إلى كل الكليات تقريبًا .. وعرفته (نرمين) التى تدرس فى كلية علوم أخرى .. وكان لا بد من الثرثرة والقيل والقال ..

وحين جاءت (هيام) فى تلك الليلة ، سألتها (نرمين) وهى تعدَ الفول إياه :

- « كيف حال الفضائح عندكم ؟ »

هزَت (هيام) كتفها فى لا مبالاة :

- « كالمعتاد .. »

- « أعنى ماذا يقولون عن (م) ؟ »

و (م) هذه طبعًا هى الطالبة التى تزوجها أستاذها ..

لكن (هيام) هزت كتفها من جديد فى غير فهم ..
وغمغمت :
ـ « (م) من ؟ »
ـ « (م) التى تزوجت من د. (ر) ؟ »
ـ « لا أعرف .. أعنى لم يصلنى هذا الخبر ..
هل تزوجته حقًا ؟! »
وضعت (نرمين) الملعقة فى الكسرولة ، ودفنت قبضتيها فى خصرها واستدارت لتواجه (هيام) :
ـ « إذن أنت الوحيدة فى العالم التى لم تعرف هذا ..
هل كنت نائمة فى الكهف مع كلبك ؟ »
ـ « إن جهل المرء بالفضائح يزيده شرفًا .. وأنا
لا أعبأ بهذا الهراء .. »
تدخلت أختى (س) لتنهى المحادثة .. لكن (نرمين) ظلت غير مصدقة أن (هيام) تجهل كل شىء عن الموضوع .. والأستاذ (ر) أستاذ كيمياء ..
أى أنه فى نفس القسم الذى تدرس فيه (هيام) ..
وقد دفعتها هذه الدهشة إلى بعض الإجراءات الغريبة ..
كانت تملك خبرة كيميائية لا بأس بها ـ برغم كونها فى قسم الجيولوجيا ـ لذا أمسكت كتابها ،

وراحت تسأل (هيام) عن بعض المعضلات الكيميائية التى لم تستوعبها فى دراستها .. لكن (هيام) أعلنت فى إصرار أنها جاءت هاهنا لتمرح وتضحك .. ولم تأت لتدرس ..

★ ★ ★

منتصف الليل بعد ما رحلت (هيام) :

فى الظلام تجلس الفتاتان مضدلجعتين كل على فراشها .. وصوت دقات المنبه الرتيبة .. تك تك تك تك تك ! »

بعد دقائق همست (نرمين) بصوت ناعس ، دعاها إليه شعورها بأن الظلام يجسّم الأصوات أكثر من اللازم :

- « (س) .. هل نمتِ ؟ »

بصوت مماثل همست (س) وقد أغمضت عينيها :

- « لا .. ليس بعد .. »

- « أنا أشك فى أمر (هيام) هذه ! »

مرت هنيهة .. ثم فتحت (س) عينيها وتساءلت :

- « ماذا تعنين ؟ »

- « إنها تزعم أنها طالبة علوم .. ومن المستحيل ألا تسمع طالبة علوم بـ ... »

قاطعتها فى سأم متثائبة :

- « هاآآه .. .. فلنقل إنها لا تحب الشائعات .. »

- « ومعلوماتهـا فى الكيميـاء .. لا تزيـد على معلومات طفل .. »

- « وماذا فى ذلك ؟ إن شخصـية مرحـة كهـذه قلمـا تـدرس .. ثـم مـا الـذى تعرفينـه أنـت عـن (الجيولوجى) ؟ »

- « لا زلت غير مستريحة .. »

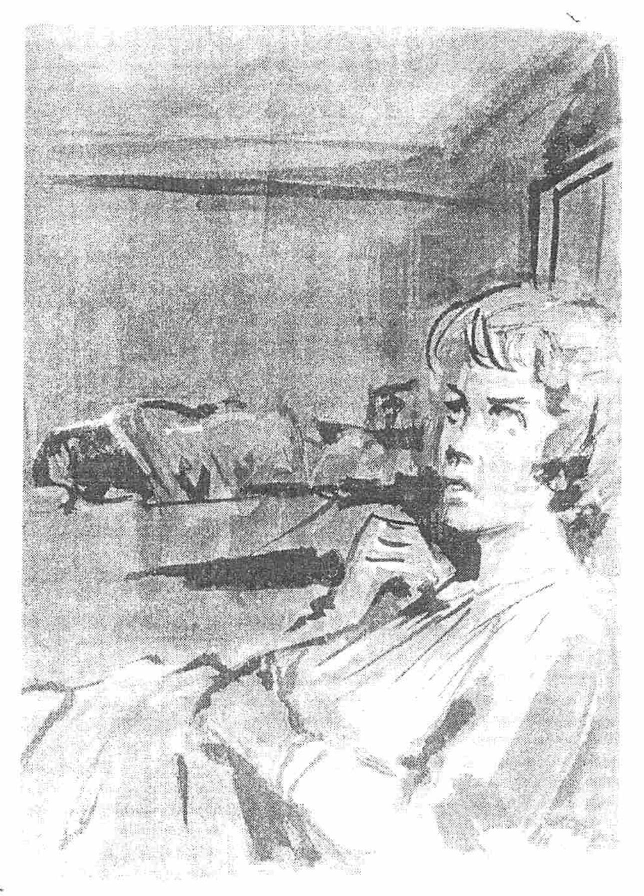
- « أرى أن النوم علاج ناآآآجع للعقول المريضة .. »

ونامت (س) تاركة (نرمين) تحدق فى الظلام .. وقبل أن تنام بدورها كانت قد أزمعت أمرا ..

* * *

كـان أول مـا فعلتـه (نرميـن) فـى الصبـاح قبـل مغادرة المسكن ، هو أن تمر على مكتب المدير لتسأل عن (هيام أبو الفتح) ..، وكان الحماس شديدًا فى الصباح .. لكن المدير أخبرها أن هنـاك (هيـام) فـى الطابق الثالث تعيش فى غرفة واحدة مـع طالبـة طب ذات عوينات ..

لا بأس .. أراحها هذا قليلاً ..



ونامت (س) تاركة (نرمين) تحدق فى الظلام . .

ذهبت إلى كليتها ، وحضرت دروس الصباح كلها .. لكن قوانين المصادفة كانت تخبئ لها مفاجأة صغيرة : (عفاف) ..

(عفاف) صديقتها وابنة مدينتها التى تقيم هى الأخرى فى القاهرة .. والتى تدرس العلوم فى كلية أخرى غير كليتها ..

كانت (عفاف) فى المكتبة تبحث عن مواد بحث طلبه منها أساتذتها ، ولم تجد ما تريد فى مكتبة كليتها ..

وكان عناق .. فقبلات .. فأسئلة لا حصر لها ..

ـ « فى أى سنة أنت يا (عفاف) ؟ إن الأمر قد اختلط علىَ .. فأنت من هواة الرسوب .. »

هزَت (عفاف) رأسها .. ولثمت ظهر كفها :

ـ « حمدًا لله .. إنها السنة الأخيرة .. لقد قتلتنى دراسة الكيمياء هذه .. قلت لأبى مرارًا إننى لا أصلح سوى للزواج و .... »

هنا وجدت (نرمين) الفرصة السانحة :

ـ « هل تعرفين (هيام أبو الفتوح) ؟ »

قطبت (عفاف) جبينها محاولة التذكر :

- « (هيام) ؟ هل هى زميلتنا ؟ »

- « بالطبع .. علوم قسم كيمياء .. فى السنة النهائية .. »

- « لا أعتقد .. ولكن .. » - ثم بللت بلسانها شفتها السفلى - « لا .. لا توجد عندنا (هيام) .. بالتأكيد .. إن دفعتنا صغيرة ومن الصعب أن ... »

ثم أشرق وجهها ، وواصلت الثرثرة :

- « ترى هل خطبت ؟ ماذا عن المهندس الذى ...... »

لكن ذهن (نرمين) تحول إلى خلية نحل فلم تسمع شيئا ..

★ ★ ★

إذن الفتاة مزيفة .. (هيام) ليست كما تزعم ..

من هى ؟ وكيف تسللت إلى مسكن الطالبات ؟ وكيف ظلت تخدعها وتخدع (س) خمسة أشهر كاملة ؟

ما هى الاستفادة التى تحصل عليها ؟ لا بد من استفادة ما .. ربما كانت (هيام) رجلاً متنكرًا و ! اقشعر بدنها للفكرة ثم طردتها سريعًا .. إن (هيام)

دون شك فتاة .. فتاة تخدعهما لغرض فى نفسها ..

ولكن ما هو ؟

★ ★ ★

حين عادت إلى المسكن قبيل المغرب ، صعدت إلى الطابق الثالث وسألت ساكنة الغرفة الأولى عن غرفة (هيام) ..

أشارت لها إلى الباب الخامس .. فقرعته ..

سمعت من الداخل من يدعوها لفتح الباب ..

كانت هناك فتاتان وكثير جدًا من العظام البشرية .. أما الأولى فكانت جالسة على مكتب معدنى صغير تدرس فى كتاب هائل الحجم .. كانت ترتدى العوينات وتبدو كعجوز طيب القلب ..

إذن أنتِ طالبة الطب .. قالتها لنفسها وتأملت الفتاة الأخرى التى كانت تلف شعرها حول أسطوانات (الرولو) أمام المرآة ..

سألتها الثانية فى ارتياب :

ـ « هل تريدين شيئًا ؟ »

ـ « أبحث عن (هيام) .. »

ـ « أنا (هيام) .. وأنتِ ؟ »

قالت فى ارتباك وهى تغلق الباب ببطء خارجة منه :
- « أبحث عن (هيام أبو الفتوح) .. »
- « لا ! توجد (هيام عبد المحسن) لو كانت تصلح ! »
وهنا كان الباب قد انغلق .. وعادت (نرمين) تهبط فى الدرج إلى غرفتها بالطابق الثانى ..
إذن الفتاة (هيام) تعرف أمر هذه الغرفة .. ولهذا زعمت أنها تقطن فيها .. هذا يفسر ما قاله المدير عن وجود (هيام) فى الطابق الثالث ..
هنا تدخلت الصدفة من جديد فى صورة العاملة العجوز البدينة ، تلك المرأة التى يجثم الشحم على قلبها فلا تفعل شيئًا تقريبًا ، لكنهم يبقونها فى المسكن على سبيل التبرك .. اسمها (فاطمة) والطالبات ينادينها بـ (دادة فاطمة) .. ويبدو أنها هاهنا منذ الأزل ..
كانت المرأة عاكفة على صعود الدرج ، تجرّ أمامها وخلفها قناطير مقنطرة من الدهن حتى كادت تلقى حتفها بسكتة قلبية .. فلما رأت (نرمين) هشت وبشت لها .. وراحت تلهث تعبيرًا عن المودة ..
سألتها (نرمين) بعد تبادل التحيات :
- « هل تعرفين من تدعى (هيام أبو الفتوح) يا دادة ؟ »

واصلت المرأة اللهاث واستندت إلى (الترابزين) .. وقالت :

- « لا يا بنيتى .. لا أحد هنا بهذا الاسم .. »

ثم - بعد تفكير - أردفت :

- « كانت هناك واحدة بهذا الاسم منذ أعوام .. كانت جميلة كالقمر خفيفة الظلَ كالشربات .. طالبة علوم على ما أذكر .. إن السن يتقدم بى ولم أعد أتذكر ما أكلت على الغداء .. ثم داء السكرى هذا ...... »

- « وأين هى الآن ؟ »

- « بالتأكيد هناك .. حيث لا يعود أحد ..! »

- « ماذا تعنين ؟ »

مصمصت العجوز بشفتيها .. وغمغمت :

- « رحمها الله ! لقد حملت جسدها الشاب بهاتين اليدين .. ولكن .. حين تكونين فى عمرى يغدو الموت رفيقًا يوميًا لا يثير رعبك .. لماذا شحبت هكذا يا بنيتى ؟ اغفرى لى هذا الحديث المقبض .. ولكن .. لماذا تسألين عنها الآن بالذات ؟! »

★ ★ ★

الآن عرفت يا (س) كل تفاصيل القصة ..

كانت (نرمين) ترتجف كورقة .. وبدت قصتها

مهشمة غير مترابطة ، فلم تتضح أجزاؤهـا إلا مـع السرد الثالث ..

وظلـت (س) تتأملهـا وهـى تحكـى دون تعليـق .. حتى إذا ما انتهت من الكلام قالت لها :

ـ « دعـك مـن هـذا الهـراء .. إنـهـا قصـص تصلـح لإفزاع الأطفال .. »

ـ « حقًا ؟ ولماذا أوشك على الموت رعبًا ؟ »

ـ « لأنك تملكين عقل دجاجة يا ملاكى .. »

هبت (نرمين) فى عصبية .. وصاحت :

ـ « ربما .. لكنى لن أنتظر ثانية واحدة بعد هذا .. سأملأ الدنيا ضجيجًا .. ولسوف أجلب المسئولين ليحققوا مع هذا الـ .. شىء .. »

ـ « كونى عاقلة يا حمقاء .. إن هذا ..... »

ـ « لن أنتظر حتى تدخل هذه الجثة الحية غرفتى ! »

واتجهت للباب لتفتحه ..

حين دوى صوت الطرقات الرقيقة على باب الحجرة .. طرقات تعرفان صاحبتها تمامًا .....

★ ★ ★

٥ ـ شقيقنا ..

والآن نترك الصديقتين في هذا المأزق غير المألوف .. كي نتعرَف بشكل أفضل حياة أخي الصغير (ى) الذي ـ كما قلت لك ـ هو (ديك البرابر) و(آخر العنقود) في بيتنا العامر ..

لم يتعلَم (ى) بعد القواعد الصارمة لدارنا .. لكنه بدأ يفهم أننا نختلف عن الآخرين إلى حد معين ..

كان يعرف أن هناك أشياء غير مألوفة تجرى في دارنا .. لكنه ـ بحكم سنه الصغير ـ كان عاجزًا عن فهمها ..

وفي المساء حين يأتي أصدقاء أبيه ، وتتصاعد روائح التبغ ودخان السجائر ، ويدوى صوت ضحكات (عاصم بك) المتظرفة ..

عندها كان يعرف أن (علاء) و (ناهد) قادمان .. ويناديه الصوتان الرفيعان من وراء خصاص النافذة ، فيهرع إلى أمه طالبًا السماح له بالخروج :

ـ « سألعب مع (علاء) و (ناهد) في المقابر .. »

تقول الأم وهي مشغولة في إعداد القهوة للضيوف :

ـ « هذا لن يكون دون أن تسأل أباك .. »
فيتركها ويدخل ـ فى كياسة ـ إلى قاعة الضيوف .. ويلتصق فى حياء بأبيه الجالس يكمل حديثه مع المهندس (محمود) .. ولا شعوريًا يطوق الأب خصره فى لطف وهو يواصل الكلام ..
يلفت المهندس (محمود) نظر الأب :
ـ « ماذا يريد هذا الرجل الصغير منك ؟ »
فيهمس (ى) بطلب الإذن فى مسمع أبيه ..
ـ « الوشوشة عيب .. كرر ما قلت بصوت عال .. »
ـ « أريد اللعب مع (علاء) و(ناهد) فى المقابر .. »
فينفجر (عاصم بك) ضاحكا :
ـ « هل تسمعون ؟ لقد ورث الطفل مزاج أبيه السوداوى ! ابن حلال مصفىً ! هى هى هى ! »
فيحملق فيه الأب منذرًا ، ثم يشير للطفل آذنًا له بالخروج :
ـ « لكن ـ أرجوك ـ لا تتأخر أو تذهب بعيدًا .. »
ويهرع الصبى مغادرًا الدار .. ليجد الطفلين اللذين من سنه ينتظران جوار الباب الخارجى ..
وينطلق الجميع ـ دون كلمة تخية واحدة ـ إلى المقابر .. وبين الشواهد المظلمة يبدأ المرح .. هل

يوجد مكان أفضل للعب المساكة ؟ هل يوجد مكان أفضل لقفز الحواجز ؟

كان (علاء) مهذبًا .. وكانت (ناهد) ملاكًا رقيقًا يخاف كل شىء .. لكنها لم تخش المقابر قط ..

لم يحاول (ى) أن يسألهما عن عنوانهما .. عن مدرستهما .. عن أبيهما .. لكنه كان يحبهما دون تحفظ .. وكان من طبقة أثرياء الفلاحين التى تماثل طبقته ، لذا لم يجد صعوبة فى التعامل معهما ..

يعرفان كل شىء عن المقابر .. ويعرفان أسماء سكانها واحدًا واحدًا .. لكنهما أنذراه مرارًا بالابتعاد عن الناحية الجنوبية ـ جوار شجرة التوت العملاقة ـ لأن العجوز (عباس) لا يحتمل ضوضاء الأطفال ..

ذات مرة كاد الرجل يفتك بهم ..

فهو عجوز خبيث المنظر ، له عين انمحى سوادها فراحت تلتمع كلؤلؤة فى الظلام ، وقامته منحنية ، وأطرافه التى أكلها الروماتزم صارت أقرب إلى المخالب ..

راح يركض وراءهم وهو يسبّ ويلعن .. ويقذفهم بالحصى .. حتى أفلتوا منه وكمنوا وراء شاهد قبر عملاق ، يلهثون ويرتجفون ..

من يومها لم يدنوا من شجرة التوت قط ..

كـان هنـاك خطر آخـر ينغص لهوهـم هـو الكـلاب السوداء العملاقة ـ المسعورة دومًا ـ التى ابتليت بهـا القرية ، وحين تلقى أحدها كنت تـرى عينين تلتمعان فى الظلام منذرتين بالويل .. وتسمع هديرا متوعـدًا .. ثم .. تدرك فجأة أن ثيابك ممزقـة وساقيك تنزفـان .. وأن إحدى وعشرين حقنة فى جدار البطن تنتظرك فى مستشفى المركز ..

لكن ـ الغريب ـ لم تهاجمه الكـلاب قط طالما كـان مع (ناهد) و(علاء) .. ولهذا السبب كانا يوصلانه إلى باب الدار بعد سـاعتين مـن اللهو البرىء .. ثم يطمئنان على دخوله ويعودان أدراجهما .. إلى بيتهما الذى يجهل كل شىء عنه ..

وحين يعود للدار يجد الضيوف قد أوشكوا على الانصـراف .. وتـدس (زينـب) هـانم قطعـــة مـــن الحلـوى فى يده ، وتربـَت على رأسه .. عندها يدخل إلى الفراش لينضو ثيابه .. يرتدى منامته .. وينام ..

★ ★ ★

أما المشاكل الحقيقية فهى فى المدرسة ..

إن الأطفال هم ملوك التعذيب فى العالم .. وقد كـان زمـلاؤه فـى الصفَ يمقتونـه حقـا .. وكـانوا يجيـدون التعبير عن هذا ..

إنه مهندم أنيق الثياب .. وكتبه منسقة .. وحقيبة يده من الجلد ..، فى حين كانوا جميعًا يرتدون مريولات قذرة متسخة فوق سراويل مناماتهم .. وكان كل منهم يحمل كيسًا من القماش يدس فيه كتبه ، وكتبهم ـ عندما تخرجها من الكيس ـ هى أقرب إلى (الكرنب) منها إلى الكتب ؛ بأوراقها المجعدة المكرمشة الملتفة ..

إذناه نظيفتان وأنف، خال من المخاط ...

لهذا كان هو العدو الطبيعى لأترابه .. وكم من معارك دموية خاضها من أجل الانتقام لكرامته .. ولهذا نجد أنه ـ فى نهاية اليوم ـ يصير واحدًا منهم فى بعثرة الثياب واتساخها ...

لم يكن هذا هو السبب الوحيد ...

ثمة سبب آخر لا يعرفه حقًا .. لكنه مهين للغاية .

ولكم من مرة حاول أحد أصدقائه إغاظته قائلا :

ـ « يا ساكن بيت العفاريت ! »

أو يقول واحد آخر مخرجًا لسانه ، مستعملاً إحدى يديه كقبضة (الهاون) والأخرى كـ (الهاون) نفسه :

ـ « يا صديق الموتى ! »

ولم يكن (ى) يفهم .. ولم يكن ينتظر حتى يفهم ..

بل تنطلق قبضته كالقذيفة إلى أى مكان فى مساحة سطح صديقه .. عينه .. أنفه .. رقبته .. بطنه ..

ويلتحم الجسدان فوق التراب وسط التهليل والتصفير .. وغالبًا لا تحسم المعركة إلا بعصا تنهال عشوائيًا على جسديهما ؛ ويمسك بها أستاذ مرهف الحس التربوى .

لكن (ى) ارتاح كثيرًا للأستاذ (ع) ....

كان دائم التشجيع له .. دائم الاقتصاص له من معذبيه ..

وحتى فى سنه الصغير لم يكن عسيرًا على (ى) أن يفهم أن (هـ) هى سبب هذا الاهتمام الزائد ...

لم لا ؟ إنه يحب الأستاذ (ع) .. فهو لطيف المعشر شديد الحياء .. ولن تخسر الأسرة كثيرًا لو أنه صار فردًا منها ...

دعا الله فى صلاته ـ التى تعلمها من أبيه ـ أن يتحقق هذا الحلم .. وصارحنى مرارًا بذلك ، فكنت أزجره فى شىء من خشونة .. لكنى سررت فى سرى لأنه يرى ما نراه ....

★ ★ ★

فى ذات يوم نادته أمى حيث كانت فى المطبخ تعدَ القهوة ـ دومًا هى تعدَ القهوة ـ للضيوف ..

انتحت به ركنًا جوار الموقد .. وركعت على ركبتيها ليتمكن من سماعها وهى تهمس .. وسألته :

ـ « هل أنت ذاهب إلى المقابر اليوم ؟ »

ـ « طبعًا .. حين يجئ (علاء) و (نا ...) »

ـ « حسن .. أريد منك معروفًا .. »

وتلفتت حولها بحذر .. ثم عادت تهمس له :

ـ « يوجد قبر بلا مزروعات أمامه .. أريد منك أن تنبش التربة التى حوله بحثًا عن كيس من المشمع .. كيس ملفوف حول أشياء ما .. هاته لى ولكن لا تفتحه .. هل سمعت ؟ لا تفتحه .. احمله لى دون أسئلة ودون أن يشعر بك أحد »

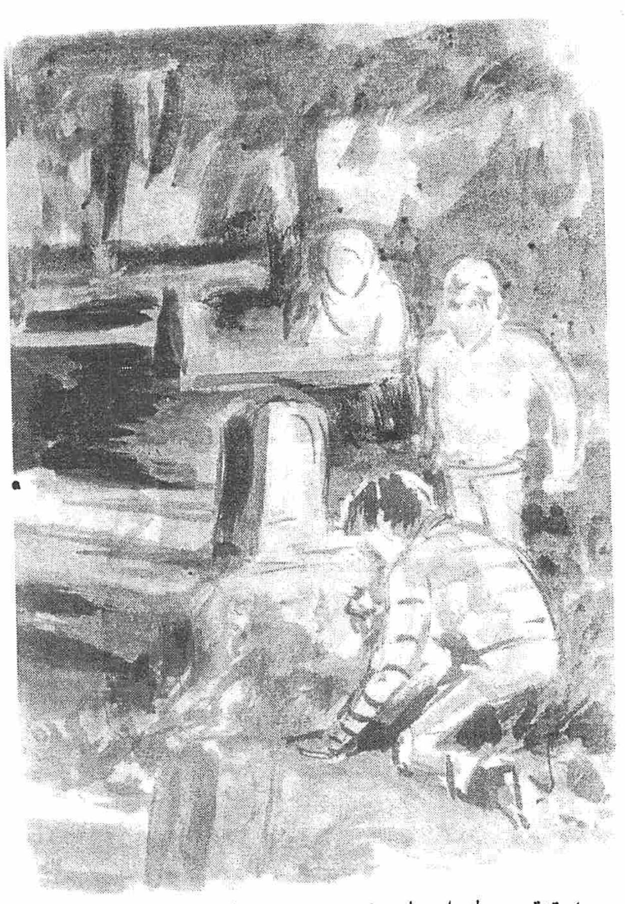
ـ « حسن .. »

قالها شاعرًا بأهميته ..

وفى الحال جاء صديقاه .. فذهب معهما إلى المقابر كعادته ..

وكان القبر المقصود هناك .. لم يكن الأمر عسيرًا .. وبعد تنقيب طويل على ضوء عود من الثقاب وجد ضالته ، فدسها فى جيبه وقلبه يخفق كالطبل ..

وعاد إلى الدار فناول (الكنز) لأمه .. فلثمته شاكرة .. وملأت كفيه بحلوى النعناع من العلبة التى



وبعد تنقيب طويل على ضوء عود من الثقاب وجد ضالته . .

تضعها فى (نملية) المطبخ .. العلبة العزيزة التى عليها صورة غزالة تتأمل الأفق ، وتحمل اسم الخواجة إياه ....

رآها - والحلوى فى فمه - تتأمل اللفافة .. ثم تغمغم فى لوعة :

- « الكفرة أولاد الكفرة ! إذن كان الشيخ (بسيونى) صادقًا .. وكنت على حق ! هذا (عمل) .. »

بعد هذا بأسبوع تقدَم الأستاذ (ع) طالبًا يدى !

★ ★ ★

لا أريد هنا أن أبدو حاسمة يا د. (رفعت) .. قلت لك ما حدث ، وأنا أعرف أن لقوانين المصادفة دورًا لا بأس به .. ثم إننى خير من يعرف الشيخ (بسيونى) .. وأعرف أنه بالتأكيد هو من دسَ هذا (العمل) لى .. لكن يجده فيما بعد .. ويأخذ أجرًا لا بأس به مع الحلوان ..

لكن .. تصوَر لحظة لو لم يكن (بسيونى) هو من دسَ هذا (العمل) لى .. إن هذا يعنى أن هناك من يكرهنى بجنون .. ويعنى أن هناك سحرًا شيطانيًا فعالاً يفوق ما نتصوره ..

★ ★ ★

(ع) يعرض إمكانياته وظروف أسرته فى دقة ، وباتزان يثير الإعجاب .. لقد كان شابًا رصينًا حقًا ....

أبى ينصت له واضعًا ساقًا على ساق .. كان مجاملا حازمًا متحفظًا يشترى ولا يبيع كما ينبغى لأبى أن يكون ...

(ى) يدخل الحجرة ويخرج منها متوترًا ـ كأنما هو العريس ـ وقد ارتسم الفخر على ملامحه .. فهو ـ ككل الأطفال ـ يحسب المعلم كائنًا ديناصوريًا أسطوريًا مكانه المدرسة ، لا يغادرها ولا يزور ولا يُزار .. ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام .. وهو يشعر بأن له دورًا فى جعل هذا الكائن الأسطورى يتنازل ويدخل دارهم ....

تسأله أمى فى همسٍ مسموع :

ـ « هيه ؟ ماذا يقولان ؟ »

ـ « يتحدثان .. »

يقولها وهو يصعّر خده لها فى غرور .. ثم يتركها عائدًا إلى غرفة الضيوف وقد رسم سمات الخطورة على وجهه ..

ونسمع صوت (ع) يكمل كلامه :

ـ « .. وهكذا ترى يا سيدى أننا أسرة طيبة .. أبى

فعل كل شيء كي يجعلنا شرفاء محترمين .. لكنه لم يترك لنا مليمًا بعد وفاته .. كنا نعيش معه (من اليد إلى الفم) .. وبعد رحيله كان عليَّ أن التحق بمعهد متوسط لأنفق على إخوتي .. وأن أضحي بحلم الجامعة الذي كان سيجعلني مهندسًا كما تمنيت .. »

لم يكن أبي راغبًا في معرفة الوضع المادي للفتى .. فثروته تسمح له بالإنفاق على أزواج بناته وابنانهم وأحفادهم .. إن كل الآباء يزعمونٍ أنهم (يشترون رجالاً) دون أن يعنوا ما يقولون حقًا .. لكن أبي كان هو مشتري الرجال الوحيد والأخير في هذا العالم ...

كان يهمه معدن الفتى ..

ثم - وهذا الأهم - كان يبغي معرفة مدى تأقلم الفتى مع نمط حياتنا - الحياة التي يحاول جاهدًا أن يغدو فردًا فيها ....

هل سيقبل حين يعرف أكثر ؟

هل سيظل على حماسه العنيد حين يتكلم الآخرون ؟

حين يعرف طرفًا من أسطورتنا ؟



٦ ـ مخاوفنا ..

حينما رحل الفتى ظل أبى جالسًا فى مقعده الأثير بعض الوقت .. ثم أمر الخادمة أن تعدّ له (النارجيلة) .. وأن تدعو سيدتها إلى القدوم إليه ...

مسحت أمى يديها فى المنشفة ، وخرجت ـ هامسة بالدعاء ـ من المطبخ ، لتجلس إلى جوار أبى جلستها الخائفة على طرف المقعد التى هى إلى الوقوف أقرب .

دقائق مرت ولا شىء سوى قرقرة الماء فى (النارجيلة) ، ورائحة التبغ الزكية تفعم القاعة ..

لقد ظل أبى متمسكًا بـ (النارجيلة) كآخر معالم الفخامة وأعتقد أنه كان يأخذ منها ما هو أكثر بالتأكيد من الدخان التركية التى كان يعيش فيها قبل الثورة .. كان يأخذ الوضع الاجتماعى إذا فهمت هذا التعبير ...

قال لها بعد صمت طال :

ـ « عرفت ما دار بيننا بالتأكيد .. »

ـ « سمعته ـ طال عمرك ـ من (ى) .. »

ـ « ورأيك ؟ »

- « شاب ابن حلال .. ومؤدب .. ولا أرى ما يمنع من ... »

- « المشكلة هى أنه لا يعرف ..! »

قالها فى عصبية جعلته يشرق بالدخان فيسعل .. ثم أردف :

- « كح كح ! إن هذا الفتى أحمق .. ليس من البلدة .. ولم يسأل عنا .. ولم يخبر أحدًا بقراره هذا .. »

- « إن النصيب حين يجىء ...... »

- « بل هو غش وتدليس .. لو كان هذا الفتى راغبًا فى الزواج من (هـ) فعليه أن يعرف الخلفيات كلها .. بعدها نتفاهم .. لا أريد أن يقول إننى خدعته فيما بعد .. »

فى جزع هتفت الأم :

- « لكن هذا يعنى ألا يعود .. »

- « هذا أشرف من الغش .. عانس شريفة هى خير من مطلقة أو زوجة معتوه .. »

صمتت المرأة على مضض ..

كانت تخدع نفسها منذ البداية .. وعلقت كل تعاسة ابنتها على شماعة السحر .. لكنها تعرف من البداية

أن السحر برىء من هذا .. وأن ابنتها لن تتزوج بسحر أو بدونه ...

* * *

في المساء الأكثر توغلاً ؛ جلست فى حجرتى أمام المرآة أمشط شعرى وأتأمل وجهى .. وجه الحورية الذى أهيم به حبًا ...

جاءت (س) أختى وجلست جوارى على حافة الفراش ، وهى تقضم قطعة من أجاصة (كمثرى) ؛ وظلت تتأملنى برهة .. ثم قالت :

ـ « لم يأت الضيوف اليوم .. »

ـ « لقد نهاهم أبى عن زيارته الليلة .. فهو يعرف بقدوم (ع) .. »

فى شرود قالت :

ـ « لو أنه رآهم فلن يلاحظ شيئًا غريبًا .. »

ـ « لكن الأمور تتضح بعد حين .. هل نسيت ما حدث لـ (نرمين) فى تلك الليلة فى مسكن الطالبات ؟ ما إن دخلت (هيام) البائسة من الباب حتى راحت (نرمين) تصرخ وتولول .. ووقفت على الفراش مرددة فى هستيريا : (لا تلمسينى) !

عندها لم تجد (هيام) بدًا من الفرار .. فالاختفاء من حياتنا تمامًا .. »

برغمى ابتسمت ابتسامة عصبية .. وسألتها :

ـ « وماذا حدث لـ (نرمين) ؟ »

ـ « عولجتْ لفترة من الانهيار العصبى .. الجميل فى هذا أن أحدًا لم يصدق حكايتها ، خاصة أننى أنكرت كل شىء .. ثم إنها تركت المسكن نهائيًا .. فضلت السفر اليومى من وإلى بلدتها .. »

ـ « كان حظًا سعيدًا .. »

ـ « لكنه لن يتوافر دومًا .. إن (ع) سيعرف .. وعندئذ ... »

رفعتُ خصلات الشعر من فوق جبينى .. وغمغمتُ فى حيرة :

ـ « لعمرى لا أفهم .. لماذا يمقت الناس الموتى ؟! »

السؤال الخالد الذى يتردد فى ذهنى منذ الصبا ..

لماذا يمقت الناس الموتى ؟!

يبدو لى سؤالاً له لا نهائية الكون وغموضه ..

لماذا يمقت الناس الموتى ؟!

★ ★ ★

ـ « لأنهم حمقى .. هذا هو كل شىء .. »

قالتها أختى (ن) وهى تتقلب فى الفراش .. كان أخى (ى) مازال ساهرًا يحملق فى السقف حين هزّها لتصحو ، وسألها عن السبب الذى يجعل الصبية يتحرشون به فى المدرسة ...

قال لها فى حيرة :

- « يقولون إننا (بيت العفاريت) ، وما إلى ذلك .. »

- « هم أحرار فيما يقولون ما دمنا لسنا كذلك .. وعلى كل حال أنا لا أرى فى العفاريت إهانة ما .. والآن .. نَمْ .. نَمْ ! »

★ ★ ★

جاء المساء التالى ..

وكانت هناك حركة غير طبيعية جهة المقابر .. المشاعل والكلوبّات مرفوعة فوق الأعناق .. وجموع الفلاحين تزحف حول صندوق خشبى مغطى ببساط أخضر .. والغبار يتصاعد فى الهواء .. فترسم عليه الأضواء ظلال القوم الذين يمشون الهوينى ضاربين الأرض بنعالهم ضربًا ..

إن للمسيرات التى تحمل المشاعل تأثيرًا دراميًّا رهيبًا .. ربما لم يستطع أحد فهمه والتعبير عنه مثلما استطاع المخرج (حسين كمال) فى المشهد الختامى الضخم لفيلم (شىء من الخوف) ..

وتدريجيًا بدا أن القرية كلها تمشى فى هذه الجنازة ، ربما باستثناء أبى الذى كان يتعالى على المناسبات الاجتماعية كلها ...

لكن (هناء) خادمتنا البلهاء عادت لنا بالخبر اليقين ، وكانت فى دار أمها بالجهة الأخرى من البلد ، جاءت تقول لنا إن الميت هو (عبد الصمد قريطم) .. فلاح من أبناء القرية توفى فى صراع بالمسدسات مع عصابة لصوص حاولوا سرقة الجمعية الزراعية .. واللصوص يعدون بإلباس رجال القرية طرحًا فى المرة القادمة ..

مع (هناء) يكون تفسير الأحداث سهلاً .. الخبر صحيح حتى عبارة (فلاح من أبناء القرية توفى) .. أما ما يلى هذا فلا صحة له .. وهو وليد خيالها المريض الذى لا يكف عن الفبركة والتأليف ..

وحين انتهت مراسم الدفن على ضوء (الكلوبات) ساد الهدوء المكان .. وإن لم يأت ضيوفنا فى تلك الأمسية ، وبالطبع لم يخرج (ى) للعب مع (علاء) و (ناهد) ...

★ ★ ★

فى الليلة التالية جاء الضيوف ..

أولاً وصل المهندس (محمود) وامرأته ، التى هرعت - كعادتها - إلى المطبخ لتبدأ الثرثرة مع النسوة هناك ...

ثم جاء د. (نجيب) صموتًا كعادته .. وعلى الفور تصاعدت رائحة تبغ الغليون السكريَة قليلاً ، والتى تعلن عن وجوده قبل أن يوجد ..

بعدها وصل (عاصم بك) برائحته العطرية (الدسمة) التى تجثم على روحك كأنك التهمت طبقًا ضخمًا من الزبد وحدك ....

كان هناك رجل نحيل مهذب يرتدى عوينات سميكة ، ولا يكف عن الثرثرة فى السياسة .. وجه جديد هو.. لكن (س) عرفت من مكانها فى المطبخ أن اسمه (حامد) .. وهو محام كما يبدو ...

بعد قليل حضر رجل ..

كان فلاحًا يرتدى جلبابًا ممزقًا وحافى القدمين .. وقد بدا عليه الارتباك .. بالتأكيد لم يبد متناغمًا مع هذا الوسط ..

سأله أبى فى رفق :

- « من أنت يا أخى ؟ »

كان صوت الرجل خفيضًا مدغوم المقاطع وهو يجيب بلهجة ريفية :

- « أنا (عبد الصمد قريطم) .. »

عاد أبى يسأله :

- « منذ متى ؟ »

- « أمس .. عصرًا .. »

- « حادث ؟ »

- « نعم .. عند الساقية .. »

- « إذن تعال وخذ مكانًا .. لابد أنك تشعر ببرد شديد .. هل تشرب شايًا ؟ »

- « أكون لك شاكرًا يا بك .. »

رفع أبى عقيرته آمرًا بالشاى .. هنا تدخل (عاصم بك) فى عصبية وهو يزيح مبسم (النارجيلة) جانبًا :

- « هذا غير لائق .. من المفهوم أننا لا نرحب بالفلاحين ها هنا .. وهذا الرجل فلاح .. يعنى تملأ البراغيث ثيابه ولا يفهم سوى فى الماشية .. وأنا أرفض أن ينضمَ إلى مجلسنا ! »

كان الارتباك يغمر (عبد الصمد) فلم يجد كلمات يقولها .. وطقطق د. (نجيب) بلسانه لا تدرى أمؤيدًا أم معارضًا .. أما أبى فقال فى فتور :

- « (عاصم بك) .. أنا أرحب بالجميع هنا .. ولئن كان الفلاحون يجدون أن جلستنا هذه لا تريحهم ولا تناسبهم فهذا شأنهم .. لكنى أقبل الجميع ولا أتعالى على أحد لأننى فلاح ابن فلاح .. »

ثم باشمئزاز أردف :

- « أمازلت متعاليًا ؟ عرفت الفارق بين حياة الزيف وحياة الحقيقة ومازلت متعاليًا ؟ هل توجد موعظة بعد الموت ؟ »

قال (عاصم بك) فى كبرياء :

- « منذ أربعين عامًا كنت أجلس مع دوق (ويلز) نتمازح .. والآن أنا مرغم على الجلوس مع (عبد الصمد قريطم) ! »

- « لست مرغمًا على شىء .. »

كانت (أم شفيق) قد جلبت الشاى للفلاح .. فتربَع على البساط السميك يجرعه فى عرفان ..

قررالمهندس (محمود) أن يبدد جوَ التوترالذى ساد المكان ، فأخرج وريقة من جيبه .. وقال فى مرح :

- « دعونى أتلُ عليكم قصيدتى الأخيرة .. كتبتها فى مناسبة الذكرى الخامسة لوفاة السيد رئيس مجلس الإدارة :

ولَى الذى قد كان نبراسًا

من بعده ساد الأسى الناسا(★) »

ثم توقف متلمظًا .. وقال باستمتاع :

ـ « السينات كثيرة فى الشطر الثانى ، مما يعطى الأسلوب جرسًا موسيقيًا محببًا .. إنه نوع من الجناس الناقص .. »

وعاد يواصل (معلَقته) المقيتة هذه ....

ـ « ولَى الذى ملك الجسارة والحجا

ولَى الذى ملأ الفؤاد حماسًا »

هنا استدار أبى إلى الجالسين .. وقال دون أن يستأذن الرجل :

ـ « ثمة عريس جاء يطلب يد (هـ) .. »

ـ « مرحى ! »

ـ « ألف مبروك ! »

ـ « إنه لخبر يستأهل قصيدة طويلة .. »

قال أبى وهو يداعب شاربه الفخم شاردًا :

ـ « المشكلة هى أنه لا يعلم شيئًا .. »

قال (عاصم بك) :

(★) نعتذر على مستوى القصيدة ، فهى من نظم المؤلف ذاته !

- « ليس لديك ما تخفيه .. القرية كلها تعلم .. لابد أنه عرف كل شيء »

- « أؤكد لك أنه لا يعلم ... »

قال د. (نجيب) في تؤدة وهو ينظف غليونه :

- « إذن لابد أن تصارحه .. بل يجب أن يلقانا ويستمع إلينا ونستمع إليه .. هذا من حقه .. »

قال المهندس (محمود) متضايقًا قليلاً من بتر قصيدته :

- « هذا طبيعي .. مادمت تنوى أن يقيم في دارك بعد الزواج .. أظن أن هذا ما تنتويه .. »

قال أبي في شرود :

- « نعم .. فهو لا يملك مسكنًا ولن يوفر واحدًا خلال أعوام .. »

- « إذن عليك بمصارحته دون تردد .. »

وساد الصمت ..

لكن الصخب بدأ في عقل أبي ..

غدًا يأتي الفتى مع شقيقته وأمه للتعارف ؛ ولوضع النقاط على الحروف للمرة الأولى ..، فكيف يمكن تدبير هذه المصارحة ؟!

★ ★ ★

واصل القط المواء ، فأحضرت لـه بعض اللبن الدافئ فى إناء صغير ووضعته جواره ...

لم أكن واثقة حتى هذه اللحظة من حقيقته .. هل هو قط حىّ أم هو من ذات عينة ضيوفنا ؟ إن التأكد من هذا مستحيل بالنسبة للحيوانات العجماء التى لا تستطيع التعبير عن نفسها ..

أحيانًا كانت حيلة الألم تجدى ..

كنت أغرس دبوسًا فى جسد الحيوان ، فإذا صرخ عرفت أنه حىّ يرزق .. وإلا كان معنى هذا ....

إن التجربة مرضية دون شك .. فقد انغرس الدبوس بكامله فى عنق القط لكنه ظلّ يلعق اللبن غير مبال بى ....

دخلت (س) الحجرة فوجدتنى عاكفة على إطعام الكائن الصغير فركعت على ركبتها تمسح على عنقه .. وسألتنى :

ـ « هل هو حقيقى ؟ »

ـ « تعنين : هل هو حىّ ؟ بالطبع لا .. »

ولثمتُ عنق القط فى حنان .. وأردفت :

ـ « إنه ليس القط .. بل هو شبحه ! »

....

★ ★ ★



لم أكن واثقة حتى هذه اللحظة من حقيقته . . هل هو قط حيّ أم هو من ذات عينة ضيوفنا ؟ . .

٧ ـ ضيوفنا ..

فى تمام السابعة مساء دق جرس الباب ..

فتحته (أم شفيق) ليدخل منه (ع) وامرأة شابة بدينة هى شقيقته الكبرى (م) .. ثم عجوز ضئيلة الجسد ترتدى ثيابًا لا بأس بأناقتها بالتأكيد هى أمه ..

دخلوا إلى قاعة الضيوف ، فجلسوا .. وعرفنا أن معهم سيارة أجرة تنتظر بسائقها خارج الدار .. فهو لم يكن ليجد مواصلات إلى المركز حين تنتهى هذه الجلسة ..

جاء أبى فصافحهم .. وسرَه ما بدا على الأخت والأم من ملامح الأصل الطيب والمودة البالغة .. أناس طيبون لا يملكون شروى نقير .. هكذا خطر له لكن هذا لم يمنعه من تكرار :

ـ خطوة عزيزة يا حاجة ! »

وكانت المرأة تملك عددًا هائلاً من الردود التى لم نسمع بها .. على غرار (أعزَ اللَّه مقدارك) ، (مؤاخذتك معك) ، (أطال اللّه عمرك) تردَ بها على كل عبارة مجاملة ببراعة منقطعة النظير ...

أما الشقيقة فراحت تقلب عينيها فى أرجاء القاعة ، و (ع) ظل يرمق رقعة معينة من البساط فى تركيز حتى كاد أن يثقبها .. وقد احمرَ وجهه كالطماطم ..

بعد قليل دق جرس الباب ...

وظهر وجه (عاصم بك) .. ثم المهندس (محمود) ثم زوجته .. ثم د. (نجيب) .. ثم (عبد الصمد) .. ثم ذلك المحامى النحيل (حامد) وقد اتجه كل منهم ليصافح الجالسين ، فى حين يقوم أبى بالتعريف الموجز البليغ ..

ترى هل لاحظ (ع) والمرأتان أن أيدى القادمين باردة كالثلج ؟

ربما .. لكن المؤكد هنا أنهم لم يفهموا علاقة كل هؤلاء بالموضوع ، موضوع شخصى كهذا .. وهم مجموعة غير متجانسة لا يوحى أفرادها بأنهم أقارب (هـ) ...

قال أبى وهو يعود للجلوس :

ـ « هم أخوة أعزاء .. »

قالت الأم :

ـ « أخوة السعد والهناء .. »

مع هذه المرأة تشعر أنك تلعب لعبة تنس مع لاعب

ماهر .. يجيد صدَ كل كراتك ، كل عبارة تقال لها تملك هى ردًا جاهزًا عليها ..

ثم إن أمى دخلت لتصافح المرأتين وتلثمهما .. وبإشارة جانبية من أبى انسحبت النسوة إلى الداخل .. على حين ظل الرجال جالسين يتبادلون النظرات ....

قال أبى فى رزانة :

ـ « إن الأستاذ (ع) شاب مهذب ينتظره مستقبل لا بأس به .. وقد جاء لطلب يد ابنتى (هـ) .. »

لكن (ع) لم يكن ينظر نحو أبى ..

كانت عيناه مثبتتين على (عاصم بك) .. (عاصم بك) الذى مدَ أصابعه فى الفحم المشتعل فى (النارجيلة) .. ورفع ـ فى هدوء ـ قطعة فحم ملتهبة .. وراح ينفخ فيها حتى تأججت نارها .. ثم أعادها بنفس الهدوء إلى مكانها ..!

أبى يواصل الكلام :

ـ « عليكم .. إن (هـ) هى ابنتى وأنتم أعمامها جميعًا .. لهذا لم أرد لهذا الموقف أن يمرَ دون أن .... »

عينا (ع) تتجهان لتتفحصا د. (نجيب) الذى أمسك بالسكين الذى نقطع به الفاكهة .. وراح ـ دون

هوادة ـ يغرسه فى فخذه مرارًا وتكرارًا .. كأنما يسلِّى نفسه فى أثناء ملل الحديث !

احمرَّ وجه (ع) وازداد توترًا .. جلس على طرف المقعد يقلِّب عينيه فى القوم .. وعلى لسانه ألف سؤال ..

وأبى مازال يتكلم :

ـ « .. تشاركوا فيه بالرأى السديد .. الذى ....»

هنا تصلبت عينا (ع) على المهندس (محمود) ..

فرآه يمارس عملاً لا يمكن اعتباره لائقًا .. ولا يصدر عن شخص مهذب حىّ .. لكنه يمكن أن يصدر عن ميت دون لومٍ كثير ...

كان (محمود) عاكفًا على لصق اللحم المتساقط من وجهه فى مكانه .. وقد بدا عليه الضيق لاضطراره لهذا العمل غير اللائق !

كان هذا كافيًا .. ووثب (ع) من مقعده ليتراجع بضع خطوات إلى الوراء .. ثم هتف فى رعب وعيناه تتشبثان بمحجريهما بصعوبة :

ـ « هـ .. هذا .. أ .. أنتم لستم بشرًا .. »

لم يبدِّل أبى من جلسته .. وبنفس الرزانة والتؤدة قال :

ـ « أنصحك أنِ تهدأ قليلاً يا بنى .. هذه هى الحقيقة .. إن هؤلا القوم ليسوا بشرًا .. أحياء ! »

ـ إ .. إذن هـ .. هذا يعنى .. »

ـ « نعم يعنى .. »

ـ « .. إنكم .. بسم اللَّه الرحمن الرحيم ! »

ـ « لم تقل إلا الصدق ! »

تراجع الفتى للباب أكثر .. وأوشك على أن يولَى الأدبار .. لكن إصبع أبى الحازم أوقفه فى موضعه :

ـ « لحظة .. لو خرجت من هذا الباب فلن تدخل منه ثانية .. ثم إن تصرفك يعكس أنانية مفزعة .. هأنتذا تفرَ من بيت الأشباح دون أن تتساءل عما يحدث الآن لأمك وأختك ! »

توقف الفتى .. ورفع يديه فى توتر صائحًا :

ـ « هذا صحيح .. أمـ... أمى .. ماذا فـ .. فعلتم بها يا أنذال ؟ »

طقطق د. (نجيب) بلسانه معترضًا .. ولوح (عاصم بك) بالمنشَة فى ضيق .. أما المهندس (محمود) فقال فى فتور :

ـ « تحشَم يا فتى .. إن فرصتك فى نيل رضانا تتضاءل بسرعة هائلة .. وأعتقد أن هذا اللسان البذىء لا يغرى بالحوار .. »

قال أبى مهدئاً النفوس :

- « صبراً يا إخوان .. إن هذا الفتى مصدوم .. وكل شىء مباح لمن أفقده الرعب صوابه .. »

ثم تناول مبسم (النارجيلة) ودسه فى فمه .. وقال بعد أن سحب بضعة أنفاس :

- « أنا لست منهم يا (ع) .. أنا شخص حىَ مثلك .. لكنى أستضيفهم فى دارى .. ولهذا قصة طويلة سأحكيها لك لو عدت إلى مقعدك .. أريد منك أن تكون رجلاً جديراً برجولته .. »

بخطى متثاقلة عاد (ع) إلى المقعد .. وجلس جلسة هى إلى الوقوف أقرب .. وتساءل فى توتر :

- « أمى .. أختى .. هل هما ؟ »

رفع أبى كفه مطمئناً :

- « بخير طبعًا .. هما مع زوجتى وبناتى وكلهن حيَات طبيعيات .. نحن لا نطمئن إلى أن ترى النساء ما رأيته أنت .. فهن يفقدن الوعى ويولولن ويصبن بالجنون وكل مالا نتمنى حدوثه .. »

دفن (ع) رأسه فى كفيه .. واهتزَ قليلاً :

- « إذن كان ماقلوه عنكم صحيحًا ! »

- « من قال ؟ »

ـ « زملائى أهل القرية .. و (فرَاش) المدرسة .. كلهم قالوا هذا لكنى لم أصدق حرفًا .. أنا أومن بالعلم فحسب .. »

ـ « ربما كان هناك علم يصف هذه الظواهر .. لكنه علم وليد لم يبلغ أشدّه بعد .. ليس العلم الوحيد هو (ثابت بلانك) وتكافؤ الصوديوم وتشريح الصرصور .. هناك علم يتحدث عما وراء الطبيعة لكنه لم يُقنَن بعد .. وحتمًا لم يُكتب .. »

ثم راح أبى يحكى قصته .. القصة التى خلقت أسطورتنا .

قال أبى وهو يناول (المبسم) لـ (عاصم بك) :

ـ « فى شبابى كنت أعبث وأصدقائى كثيرًا فى هذه الأمور .. كنا معدومى الخبرة والمسئولية ، لهذا رحنا نلهو حول الحدود الخطرة للحياة والموت .. اعتدنا تحضير الأرواح ولم نتعلم كيفية صرفها .. النتيجة هى أننا صرنا محاصرين .. وجُنَ اثنان من أصحابى وانتحر ثالث .. أما أنا فقد عقدت معهم صفقة .. سيكون علىَ وعلى من يأتى من ذريتى أن يقبل استضافة أشباح الموتى .. خاصة هؤلاء الذين ماتوا حديثًا ويشعرون بالغربة والحيرة فى عالمهم الجديد ...

معى يشعرون بالدفء الإنسانى ويشعرون لبعض الوقت بأنهم ما زالوا أحياء يرزقون .. »

ووضع ساقًا على ساق وضم عباءته على كتفيه وأردف :

- « من يومهم والموتى - أو أشباحهم - جزء من عالمى .. بيتى مفتوح لهم عند مجيئهم ليلاً .. يمضون معى أيامًا .. شهورًا .. ثم يرحلون ويأتى آخرون غيرهم ..، كل أبنائى تربوا وسط هؤلاء الزائرين الليليين .. لم يتعلم واحد من أبنائى أن يخاف منهم أو يسىء لهم بكلمة تجرح شعورهم (إن الأشباح شديدة الحساسية حقًا) .. وكل أبنائى يعلمون أن الأشباح ستزور بيوتهم حين يكبرون ؛ لأن هذا هو قدرهم .. »

وابتلع ريقه كأنما عادت إليه ذكرى أليمة :

- « لا أكتمك سرًا أن هذا هو سبب طلاقى من زوجتى الأولى .. لم تتحمل المرأة هؤلاء الزوار كل ليلة ، وأوشكت على الجنون .. ثم إننى آليت أن أعيش طيلة عمرى جوار المقابر لأن هذا أقرب مكان إلى أصدقائى .. ولم ترض المرأة بهذا وانفصلنا .. إن بناتى يعرفن قصة مختلقة عن طلاقنا لكن هذا هو

السبب الوحيد .. والآن أنا متزوج من فلاحة طيبة .. فلاحة من طمى هذه الأرض التى لا تعرف فارقا بين حىَ وميت .. إن الريفيين ـ كأجدادهم الفراعنة ـ لا يرون فى الموت سوى رحيل إلى أرض أخرى .. سفر .. ويتحدثون عن موتاهم كأنهم أحياء يرون ويسمعون كل شىء .. لهذا لم ترفض هذه المرأة الطيبة حياتى .. بعد فترة من الذعر صارت جزءًا من هذه الحياة .. وأنجبتْ لى أطفالاً علَمتَهم أن هذا هو الصواب ولا صواب غيره .. »

ثم مال برأسه نحو (ع) وتساءل :

ـ « ما هو رأيك فى كل هذا ؟ »

لا جواب من (ع) ..

ـ « لم أرد خداعك .. كان من الممكن أن أطلب من ضيوفى عدم المجىء إلى هنا .. أو كنت أجعلهم يأتون ولكن لا يقدمون هذا العرض الشائق .. لكنى أردت أن أطلعك على البيت الذى طلبت الدخول فيه .. وأن أريك نمط الحياة الذى ينتظرك .. فهل مازلت راغبًا فى (هـ) بعد ذلك ؟ »

صمت (ع) .. لم يجرؤ على رفع رأسهُ ليرمق من حوله .. بعدما تأكد من كونهم أشباحًا .. .

كان لونه كلون الجثث .. والواقع أن من يدخل الحجرة كان سيخاله هو الشبح والأحياء هم من حوله .
هنيهة مرت .. فبرهة .. ثم همس بصوت مبحوح :
- « أرجو أن تنادى لى أمى وأختى ... »
صفق أبى بكفيه يأمر الخادم أن تدعو السيدتين ، لأن الأستاذ (ع) يريد الانصراف ..
وجاءت المرأتان والحبور يملأ أعطافهما .. فقد كان التعارف مع نساء الأسرة و (زينب) هانم ناجحًا تمامًا ..
فلما رأتا وجه الفتى الشاحب المتهالك آثرتا الصمت.. وقررتا أن تعرفا ما حدث - وهو غالبًا غير سارّ - فى طريق العودة ..
تمت المصافحات سريعًا .. واتجهوا إلى الباب ، وهما تعدان بتكرار الزيارة مرارًا .. وأن البيت سيكون واحدًا إن شاء الله ..
كان (ع) منهارًا تمامًا .. كدمية (ماريونيت) انقطعت خيوطها .. وقد سحبته المرأتان من الباب سحبًا ورأسه يترنح كأنما انقطعت العضلات التى ترفعه فوق العنق ..
وحين انغلق الباب ساد الصمت ..

بعدها قال د. (نجيب) فى وقاره المعتاد :
ـ « لن يعود .. »
قال أبى بنفس الوقار :
ـ « لم يساورنى شك فى هذا .. لكنه رجل شريف على كل حال .. »
قال المهندس (محمود) فى قلق :
ـ « ماذا لو ملأ الدنيا صخبًا .. وراح يثرثر بما رأى ؟ »
ـ « لن يتكلم .. وإذا تكلم فما الذى سيضيفه إلى كل الأقاويل التى تملأ القرية ؟! كل الناس تعرف أن الأشباح تزور بيتى .. والشاة لا يضيرها سلخها بعد ذبحها .. »
قال (عبد الصمد) حيث تربع على البساط يعبث فى قدميه :
ـ « لقد آذيناك حقًا يا بك .. »
قال أبى فى طلاقة :
ـ « لا تقل هذا .. أنا نفسى لم أعد أطيق الآخرين .. كل هذا الغرور والسخف .. أنتم فقط عرفتم الحقيقة ومدى ضآلة الإنسان .. لهذا أجد أن لديكم نضجًا هائلاً يناسبنى .. »

قال (عاصم بك) فى لزوجة :

- « مازلت أكرر عرضى .. »

- « لا تعد لهذا السخف .. أزوج ابنتى البكر من شبح ؟ وشبح ماجن متصاب مثلك ؟ مستحيل .. »

قال المهندس (محمود) وهو يخرج قصاصة ورق من جيبه :

- « يمكننى أن أسمعكم قصيدة لا بأس بها عن زواج الشيوخ من شابات .. »

- « هل هى (الغراب - يا وقعة سودا - جوزوه أحلى يمامة ؟ »

- « بل هى قصيدة عمودية بالفصحى .. أقول فيها :

زفوا الربيع إلى الشتاء فماتا

والدود من زهر المروج اقتاتا(★)

.... إلخ ...

★ ★ ★

ترى ماذا فعل (ع) ؟

وماذا قال لأسرته بعد ما عرف أسطورتنا ؟

....

(★) نكرر الأسف !

٨ ـ مصيرنا ..

سائق عربة الأجرة (عباس) بشاربه الكث وسوالفه الطويلة ، بدا غير مستريح لهذا البيت .. لهذا دخل سيارته وأغلق زجاجها عليه .. وأدار المذياع ليصغى لمحطة (أم كلثوم) ..

وكما قال لـ (ع) فيما بعد يصف لحظات انتظاره بالخارج :

ـ « كلاب سوداء كبيرة كانت تأتى من كل صوب .. وتقف فى مواجهة البيت تنبح .. كأنما هناك ما يثيرها .. »

ثم اتسعت عيناه وأردف :

ـ « ثم جاء طفلان ـ ولد وبنت ـ مرّا بين الكلاب دون وجل .. بل إن الكلاب تراجعت حينما رأتهما .. و ... »

ورأى نظرة عدم تصديق فى عينى الأم .. فقال فى حماس :

ـ « أقسم بالله هذا ما حدث .. أنت تعرف أننى أقلعت عن الحشيش والبوظة وكل صنف يغضب الله .. ثم إن الطفلين وقفا جوار إحدى النوافذ ، وراحا يناديان من يدعى (ى) .. »

وأمسك عجلة القيادة بكلتا يديه .. وأردف :

- « لم يظهرا ما يدل على أنهما لاحظا وجودى .. لا أدرى كيف .. »

لكن (ع) كان يصدق هذا ...

يصدق ما هو أكثر وأفدح منه ...

★ ★ ★

سألته الأم حيث جلست فى المقعد الخلفى وراءه :

- « ماذا حدث ؟ هل تشاجرتم ؟ »

قال لها وهو يرمق الظلام بالخارج ، وأشباح الأشجار تتسابق على الجانبين :

- « دعك من هذه السيرة يا أماه .. لن أعود إلى هذه الدار ما حييت .. »

تدخل السائق مشجعًا وهو يشعل لفافة تبغ :

- « خير ما صنعت يا أستاذ (ع) .. سيجارة ؟ لا ... إن هذا البيت أثار القشعريرة فى جسدى .. إن قلب المؤمن دليلة ، وأنا مؤمن ولله الحمد .. صحيح أننى كنت أتعاطى الحشيش لكنى الآن لا أفعل .. أنا مؤمن .. وهذا البيت ليس مريحًا .. بالتأكيد ليس مريحًا .. »

لم تعلق الأم .. وواصلت السؤال :

- « هل رأيت شيئا ضايقك ؟ »

غمغم وهو يسند جبهته إلى زجاج النافذة البارد :

ـ « قلت لك أن تنسى هذا الموضوع .. »
ـ « لا يوجد ما يستحيل إصلاحه .. »
ـ « إلا هذا يا أماه .. إلا هذا .. »

لاحت بيوت المركز من بعيد .. فراح يعبث فى جيبه باحثًا عن النقود التى سينقد بها السائق ..

خرجت من جيبه زهرة حمراء لم تذبل بعد .. ونسيها هناك ..

كانت هناك فى دار (هـ) مزهرية ملأى بزهور حمراء يانعة .. بالطبع .. ففى بيتهم تعود الزهور الذابلة إلى الحياة .. أشباح بشر وأشباح كلاب وأشباح زهور .. كل شىء جائز .. والزمن ذاته يتجمد ...

* * *

زهرة حمراء تلفظ أنفاسها على أسفلت الطريق الزراعى .

هل رآها أحدكم ؟

* * *

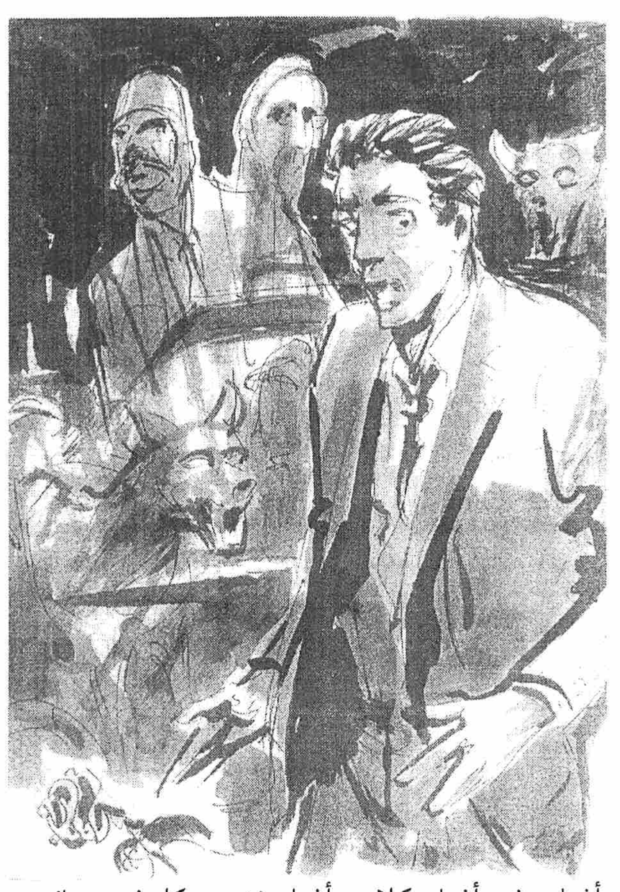
لماذا يا (ع) ؟ لماذا ؟

كنت قد بدأت أهيم بك يا أحمق ....

* * *

خبر سارّ أعلنه (عاصم بك) فى الليلة التالية ..

إنه قد صار مستعدًا للرحيل الآن .. ولن يعود للمجىء فى الليالى المقبلة .. خبر سارّ لأنه يعنى أن



أشباح بشر وأشباح كلاب وأشباح زهور . . كل شيء جائز . .
والزمن ذاته يتجمد !

الرجل قد نضج وتقبل فكرة الموت .. وسارَ لأن (عاصم بك) كان ضيفًا مزعجًا يحمل عيوب الأحياء كلها .

لكن الفراق أليم دومًا ..

ودموع حارة سالت من أبى وهو يعانق الرجل مودعًا .. كذا عانقه الآخرون فى حرارة ..

قال (عاصم بك) وهو يصلح من وضع طربوشه :

ـ « لقد عرفت أسعد أيام حيـ ... أ ... أسعد أيامى فى هذا البيت .. وعرفت معنى الصداقة الحقة .. إنكم تختلفون عن كل الأنذال الذين تخلوا عنى فى حياتى .. وتركونى أموت بالسكتة القلبية دون أن يستدعوا الطبيب .. كنت أمثل لهم عجوزًا لا نفع من ورائه .. »

قال أبى محاولاً تغيير مجرى الحديث :

ـ « وأين ستقيم ؟ فى الخرائب ؟ »

ـ « بل فى القبر ذاته .. فهو مريح جميل .. لعله أفخم قبور هذه القرية المنكودة .. وإن كنت أمقت رؤية العظام التى تحول جسدى إليها .. »

ـ « كلنا ذلك الرجل يا عزيزى .. »

وتعانقا من جديد .....

تساءل د. (نجيب) وهو ينظف غليونه :

ـ « ماذا عن ذلك الشاب (ع) الذى كان هنا بالأمس ؟ »

قال أبى وهو يريح يده على كتف (عاصم بك) :
- « يقول (ى) إنه تغيب عن المدرسة .. أعتقد أنه سيتغيب لفترة وبعدها يطلب نقله إلى قرية أخرى .. »
- « هذا ليس مستغربًا .. »
وفرغ الأصدقاء من الوداع ..
واتجهوا نحو باب الدار ليعود كل منهم إلى مكانه .

★ ★ ★

لكن (ع) عاد إلى المدرسة ..
فى ذلك اليوم كنت هناك واقفة كعهدى بانتظار (ى) .. حين رأيت المدرس الشاب قادمًا نحوى يجرّ رجله فى تردد .. وكان ينظر إلى الأرض عازمًا على أن يصطدم بى (بالصدفة) ..
واصطدم بى فعلاً .. فرفع وجهًا باسمًا نحوى وهتف :
- « (هـ) ؟ يا لها من مصادفة ! »
تأملته فى صمت ولم أقل شيئًا ..
ما الذى يبتغيه بالضبط ؟ هو لن يتزوجنى كما هو واضح .. وبالتالى لم يعد هناك معنى للمجاملات ..
إن عدم زواجك من امرأة ما ، لهو أكبر إهانة يمكن وصفها .. وليس بعدَ ذلك بعدُ ...
قال لى معاتبًا :

ـ « لم تخبرينى .. »
ـ « بمَ ؟ »
ـ « بما قاله أبوك ؟ »
ـ « لأنك لم تسألنى .. ولست مطالبة بتعليق لافتة تقول إننى أستضيف الأشباح .. »
مرت برهة صمت .. بعدها غمغم (ع) فى حيرة :
ـ « لم أعد أدرى .. إننى أميل إليك كثيرًا لكن كل هذا كثير .. كثير جدًا .. إنه يفوق الطبيعةِ ويفوق خبرات البشر .. وبعد كل هذا تجديننى جبانًا لأننى لا أقبله ؟ مستحيل أن يقبله أحد ! »
قلت فى كبرياء وأنا أرمق الجهة الأخرى :
ـ « لم أطالبك بشىء ولم أطالبِ الآخرين بشىء .. أنت حرَ فى قبول (تنزانيا) علىِ خارطة العالم أو عدم قبولها .. فهذا لن يغير شيئا .. (تنزانيا) موجودة بالفعل .. وستبقى كذلك .. »
ـ « أردت أن أفسر لك فحسب .. »
ـ « هذا مجهود لمٍ يطلبه أحد .. »
ـ « لقد أحببتك حقا .. »
ـ « الجميع يحبوننى ولا حيلة لى فى هذا .. »
هنا كان (ى) قد وصل .. وحيًا أستاذه فى فتور .. فقبضتُ على كفه فى حزم وابتعدنا ...

★ ★ ★

ولكننى ـ حين عدت إلى دارى ـ لم أعد أملك ذات الكبرياء المتوقد .. وخطر لى أنه قد يكون على شىء من صواب ...

إن عالمى لغريب .. شاذ .. وليس ذنبه ألا يتمكن من قبوله .. من قال إن الموتى الذين يزورون دارك ليلاً موضوع يحتمل المناقشة ؟

إننا ـ فى تماسكنا الأُسرىّ ـ قد ظلمنا العالم الخارجى كثيرًا .. وفرضنا عليه أن يعيش بمقاييسنا وإلا كان عالمًا رديئًا ..

تمسح القط فى ساقى ..

فأزحته عنى بشىء من اشمئزاز ..

إن كل هذا يناقض الطبيعة .. لهذا هو منفر وغريب .

وفى المساء بدأت الدموع تبلل وسادتى للمرة الأولى .

وتذكرت قصة ماتت منذ أعوام ...

★ ★ ★

مثلما جاءت (هيام) لتثرثر مع (س) .. ومثلما يجىء (علاء) و (ناهد) ليلعبا مع (ى) ؛ كانت (ريما) تأتى لدارنا ليلاً كى تدرس معى ..

كانت (ريما) فى سنى ـ الثالثة عشرة وقتها ـ حزينة شاحبة لا تبتسم أبدًا .. وكان هذا يفزعنى .. فالأطفال والمراهقون الذين لا يضحكون مرعبون دائمًا .

لكنى ـ تأدبًا ـ لم أكن أظهر رعبًا .. وكنت أجلس جوارها على الفراش ، ونضع كتب الرياضيات والجغرافيًا والتاريخ كومة واحدة جوّارنا .. الأدهى هو أن أبى كان يغلق الباب علينا كى لا يعطلنا شىء عن التحصيل ! وحتى لا أستطيع الفرار ...

وكنت أتأمل عينيها الذابلتين .. وشحوبها ..

وأتساءل عن سرَ اهتمامها بالتحصيل إلى هذا الحدَ ! لم تكن مقبلة على امتحان بالتأكيد .. لكنها تمارس كل عاداتها وهى حية مثلنا ...

وكانت الفكرة تملؤنى ذعرًا على ذعر ....

الآن أسترجع الذعر ذاته ، وأوقن أن حياتنا لم تكن طبيعية قط .. ولن تكون ...

آه ! لو أكون أخرى ... لو أنفصل عن هذه الأسرة وأبدأ فى مكان جديد سحيق خال من الموتى وسيرتهم ....

لكنى لا أعرف لنفسى حياة أخرى .. ولا أناسًا آخرين ..

★ ★ ★

اغفْر لى لحظة الوهن هذه ..

هأنذا أسترد قواى ، وأعود إلى حبى والتحامى بأسرتى ..

إن من يأبى أن يكون منا لا يستحق أن يكون منا .

★ ★ ★

فى المساء رحت أتأمل وجهى فى المرآة ...

يا للجمال الباهر ويا للسحر ! لكن كل هذا بلا جدوى .. كزهرة بارعة الحسن تنمو فوق قمة جبل ، فلا يراها أحد ولا ينتفع بها أحد ، ثم تذبل وتموت ..

كل هذه الحياة عبث طويل مرهق ، ينتهى بأن أموت وأتردد فى صورة شبح على دار (س) لأفزع زوجها لو صار لها زوج ...

لن أعرف مذاق الأمومة .. ولن أدغدغ طفلاً رضيعًا أعرف أنه جاء من أحشائى أنا ..

لن أراه وهو يكبر ويخطو خطوته الأولى على الأرض ..

ولن أبحث له ـ فى صرامة ـ عن زوجة تناسبنى أنا لا هو ..

وانفجرت فى البكاء ...

★ ★ ★

لا أريد الاعتراف بهذا ...

أنا خجول من التصريح .. لكنى مرضت جدًا وهزلت فى الأيام التالية .. وكأنَ جسدى يأبى أن يشارك إرادتى التحدى ...

رحت أقيء مرارًا .. وأعاف الطعام ..

وامتلأت حجرتي برائحة البخور .. ورقتني أمي عدة مرات ، تثاءبت مللاً في إحداها مما جعلها توقن بأنني محسودة ...

وسمح أبي لـ د. (نجيب) بأن يفحصني ..

كان عليَّ أن أتحمل أنامله المثلوجة على بطني .. وأن أقاوم حقيقة أن من يكشف عليَّ ليس حيًا ...

لكن د. (نجيب) كان يجيد مهنته حقًا .. عرفت هذا من أمي فيما بعد ...

قال لأبي في قاعة الضيوف :

- « إن أعراضها ليست جثمانية .. إنها أعراض نفسية تمامًا .. أعراض اكتئاب تفاعلي حاد .. »

- « سبحان الله ! وتقيء وتهزل ؟ »

- « الاكتئاب هو سرطان النفس .. »

تساءل أبي وهو يسترخي في مقعده :

- « والحلَ ؟ »

- « الاكتئاب التفاعلي لا يزول إلا بزوال السبب .. إن (هـ) تعاني رتابة الحياة وانغلاقها .. فلا أصدقاء لها .. والخطاب ينفرون من هذه الدار كما حدث مع المدعو (ع) .. إن الحل يمكن في إبعادها من هنا .. أو - واسمح لي بهذا - تزويجها ! »

صاح أبى فى حنق :
ـ « تزويجها ؟ هل تقول إن ابنتى ؟! »
رفع د. (نجيب) يده مقاطعًا :
ـ « إنها سنة الحياة ودورتها البيولوجية التى حتَمها الخالق .. لقد خلقها الله كى تتزوج وتعمر الأرض مع زوجها .. وليس لهذا علاقة بأساسها التربوى .. وحين نتحدَى سنة الله هذه يكون المرض النفسى أبسط ما نلقاه .. »
حك أبى ذقنه مفكرًا :
ـ « كلام لا بأس به .. ولكن ماذا عساى أن أفعل ؟ هل أدور على الديار أطلب عريسًا ؟ »
ـ « إن الفتى الذى تقدم لها منذ أيام مناسب للغاية .. وأحسبها متعلقة به إلى حد ما برغم مكابرتها .. لِمَ لا تحاول معه ثانية ؟ »
ـ « أحاول ؟ وكرامتى ؟ ماذا لو رفض ؟ »
ـ « إن الأمر يستحق المحاولة .. »
هنا نهض (عبد الصمد) من مجلسه على البساط .. وقال فى حماس :
ـ « دعه لى يا سيدى .. أنا أعرف كيف أقنعه ! »
....

★ ★ ★

٩ - أسطورتنا ..

حدث هذا حين كان (ع) عائدًا من المدرسة ...

كانت دروس الفترة المسائية قد انتهت ؛ وقد بدأت الشمس تنحدر إلى الأفق لتغفو بعد يوم مرهق من العمل ....

يمشى (ع) جوار الترعة قاصدًا موقف السيارات ، حيث تحتشد تلك الأشياء المتهالكة من القرن الماضى .. سيارات كانت فاخرة فى الأربعينات ثم أعطبها الزمن وفتتها .. لكنها ظلت تتحرك ..

بعربة من هذه وثلاثة قروش يعود إلى المركز يوميًا .. حيث يتناول وجبته الأساسية ، ويصلى ويغفو فى الفراش المتهالك إلى الصباح ..

كان يومًا طويلاً أرهقه ..

وفى الظلام لم تكن الرؤية واضحة لعينيه المتعبتين .

لكن هناك دومًا سيارة أخيرة تنتظر آخر الذاهبين إلى المركز .. بعدها تنعزل قريتنا عن العالم تمامًا ..

الطريق صار محفورًا فى ذهنه بعد كل المرات التى

قطعه فيها .. فهنا البقال (سليمان) يدخن الجوزة على دكَة جوار محله .. وهنا الكلب العجوز يغفو على باب دار .. وهنا جذع النخلة المقطوع الذى وضعوه كجسر على ضفتى الترعة ، والذى يلهو فوقه الصبية لا يهابون السقوط فى الماء ، ويسميه أهل القرية (القحف) كأنه معلم أثرى من معالم قريتهم .. ثم عدد من الجاموس عائد من الحقل تتقدمه طفلة صغيرة ضامرة كالقملة حافية القدمين . سبحان الذى سخَر هذه الوحوش لطفلة يمكن أن تُهشَم لو داسها حافر واحد ....

ثم المنحنى جوار هذا البيت الطينى ..

وتمَر فى حارة ضيقة تملؤها الكلاب .. لكن حذار من أن تدوس ذيل أحدها .. إنها على العموم مسالمة اعتادت وجوده ....

و ....

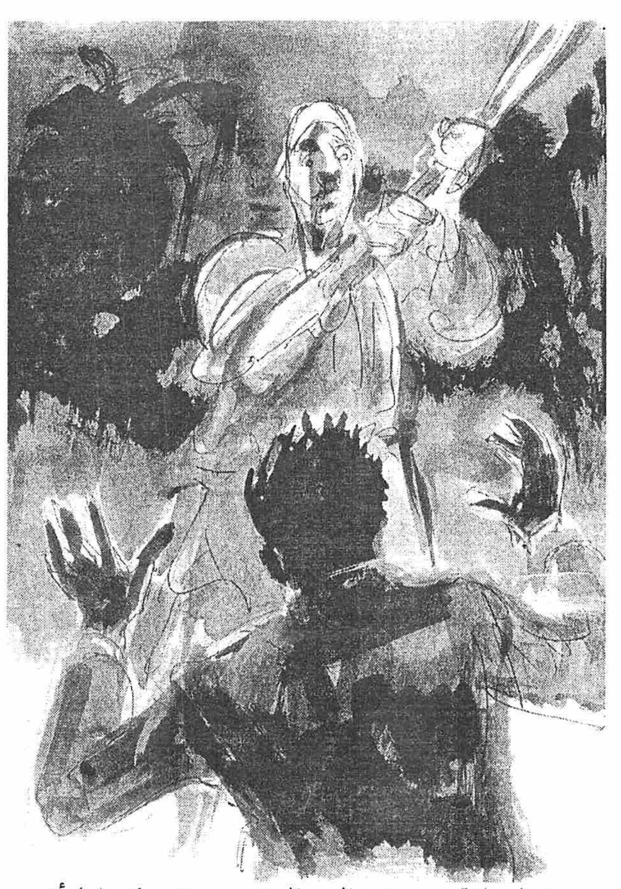
* * *

كان العملاق يقف فى الظلام ...

فى يده (نبوت) هائل الحجم يرفعه منذرًا ..

وتردد الصوت العميق الرهيب يقول :

ـ « اذهب إلى البك واسترضه ! »
وثب قلب الفتى إلى فمه .. وتساءل فى حيرة :
ـ « مـ . من أنت ؟ »
ـ « أنا واحد ممن أكرمهم البك .. لهذا أنا مدين له .. عليك أن تعود وتطلب يد (هـ) هانم ! »
تراجع الفتى إلى الوراء .. وبهلع هتف :
ـ « إذن .. إذن أنت واحد من ! »
دنا العملاق من دائرة النور الشاحب ، فاستطاع (ع) أن يرى ملامحه إلى حدَ ما ..
لقد كان جالسًا على البساط فى تلك الأمسية !
أطلق صيحة واستدار ليفرَ ..
عندئذ شعر بشىء يحمله من ظهره .. وقدماه ترتفعان عن الأرض فراح يركل ويتملص ..
ـ « عُد للبك واطلب يد ابنته .. وإلا .... »
صرخ (ع) مستغيثًا :
ـ « هذا لن يكون ..! »
ـ لا تتمسك برأيك .. »
ـ « لا !.. »



دنا العملاق من دائرة النور الشاحب ، فاستطاع (ع) أن يرى ملامحه إلى حدّ ما . .

في اللحظة التالية أدرك أنه يرتفع في الهواء .. وأنه يغوص في بئر عميقة مظلمة ...

كان (الترانش) الذي تحشد فيه مياه المجاري - فالقرية ليس لها نظام صرف صحي - مفتوح بفعل فاعل في هذا الزقاق الضيق .. وبالتالي غدا خطرًا مريعًا على الغافلين ..

لكن (ع) لم يدرك - وكيف يدرك ؟ - إنه هو بالذات يهوي في البئر المظلم كريه الرائحة ....

★ ★ ★

مرَ يومان والقلق يعمَ الجميع ...

كثيرون جاءوا يبحثون عن (ع) .. وتم سؤال الجميع .. لكن أحدًا لم يدر بالإجابة ..

كل الشواهد تقول إنه غادر المدرسة مساءً كعادته .. لكن السائقين ينكرون جميعًا رؤيته ليلتها ..

لقد رآه البقال العجوز وبادله التحية .. معنى هذا أنه فُقد في مكان ما بين متجر البقالة وموقف العربات .

لكن البحث لم يسفر عن شيء .. يوجد (ترانش) منسي في هذا الزقاق لكنه مغلق من سنين .. وغطاؤه محكم يعجز رجلان قويان عن إزاحته .. إذن هو غرق في الترعة ..

لكن البحث لم يسفر عن وجود جثته المتشمعة المنتفخة التى تمنى رجال الشرطة أن يجدوها لتنتهى القصة ...

ابنك مفقود يا سيدتى .. خرج ولم يعد .. ولا نرى ما يمنع من أن تنشرى صورته فى الجرائد مع نداء إنسانى ..

انتحر ؟ لا نظنَ .. حتى ولو فشل فى الحب كما تقولين ..

إن جثث المنتحرين لا تتبخَر .. ولابد أن تجديها فى مصرف .. أو جوار شجرة .. أو وسط المزروعات ..

كلا .. لم ينتحر ابنك .. نرجح هنا أنه قد هرب .. فرَ إلى مكان ما لا يعرفه فيه أحد .. وبالطبع سيعود .. كلهم يعودون بعد حين ...

فقط تجمَلى بالصبر والسلوان ..

★ ★ ★

فى الأمسية التالية فى دارنا :

جاء ضيوف أبى الواحد تلو الآخر ...

المهندس (محمود) .. وزوجته .. المحامى .. (عبد الصمد) .. د. (نجيب) ..

ثم جاء آخر الضيوف ...

كان شابًا وادعًا يبدو الخجل على محياه ..

فما إن رآه الجالسون حتى هبوا واقفين :

ـ « أنت ؟! »

احمرَت أذنا الفتى .. وهمس بصوت مبحوح :

ـ « نعم .. جئت أنضم لمجلسكم .. »

تأمله أبى فى شك .. وغمغم :

ـ « إن العالم كله يفتش عنك دون جدوى .. هل أنت واثق من كونك ميتًا ؟ »

لم يرد (ع) .. مدَ أنامله إلى النار فى الفحم .. والتقط جذوة وهشمها بأنامله فى حركة درامية ذات معنى ....

قال أبى وهو يعود للجلوس :

ـ « إذن أنت ميت .. ولكن متى وكيف ؟ »

رفع (ع) أصبعًا متهمًا وجَهه نحو (عبد الصمد) .. وهتف :

ـ « قتلنى هذا الرجل .. رمانى فى (ترانش) مفتوح .. »

ـ « هذا هو السرَ ! لهذا لم يجدوا جثتك قط ! ولهذا أنت هنا .. لقد وجد لك (عبد الصمد) قبرًا

دائمًا فى القرية .. ولولا هذا لدفنت فى المركز بعيدًا عنا .. لماذا فعلت هذا يا (عبد الصمد) ؟ »

حك الفلاح المذكور رأسه من تحت طاقيته .. وقال فى شىء من حرج .:

ـ « أردت أن أرغمه على المجىء إلى هنا يا بك .. »

نظر أبى إلى (ع) وتساءل :

ـ « وهأنتذا قد جئت .. هل تحس حقدًا على قاتلك ؟ »

قال (ع) فى شرود :

ـ « لا أدرى .. من الصعب أن يحقد ميت على ميت .. لكنى فقدت شبابى ومستقبلى وأسرتى بضربة واحدة من شبح أحمق .. إن هذا يذهلنى أكثر منه يحزننى .. »

ثبت أبى عينيه فى عينى (عبد الصمد) :

ـ « هل لى أن أعرف لماذا فعلت ذلك ؟ »

ـ « لأنى .. لأنى أحبك يا بك ! »

ـ « لعمرى هذا وفاء نادر .. لكنك تجاوزت الحدَ .. تجاوزته وكاان يجب أن تسألنى أولاً .. »

وأطرق إلى الأرض يتأملها :

ـ « كان يجب أن تسألنى أولاً .. »

★ ★ ★

ومن يومها صار (ع) ملكى ...
إنه يأتى لنا فى كل أمسية ، فيجلس جوار (محمود).. ويصغى لأشعاره الرديئة.. ويتبادل النكات مع المحامى .
وأحيانًا يسمح له أبى بمغادرة الغرفة ، لأقف معه فى الردهة نتبادل كلمات خجلى كالتى كنا نتبادلها على باب المدرسة ..
لقد نسى (عبد الصمد) تفصيلاً بسيطًا ...
من المستحيل الآن أن أتزوج من (ع) لأنه شبح وأنا حيَة ..
وقد غدا الوضع أكثر تعقيدًا مما كان ...
لكنه ها هنا .. جوارى إلى الأبد .. ومعه أبى .. وكل الأعزاء الذين أنتمى إليهم ..
لقد صار (ع) واحدًا من أسرتنا أخيرًا ..
وهذا يكفينى ويثلج صدرى ...
ويومًا ما سأموت .. عندها أكون معه للأبد .. ونذهب لنمضى أمسيات دافئة عند أخى أو أختى ...
هذه هى أسطورتنا يا د. (رفعت) :
حكيتها لك بأمانة وصدقٍ ..
لا آمل أن أجد عندك حلاً لهذا الوضع المستحيل .. لكنى أرجوك ألا تبخل علىّ به لو كان عندك .....
المخلصة (هـ)

خاتمة

مرحبًا .. أنا د. (رفعت) أعود إليكم لاستكمال التعليق على أحداث هذا الخطاب .. وهو ـ كالعادة ـ تعليق سخيف لا يضيف جديدًا ..

لقد انتهت أسطورتهم ..

وبالطبع لا أملك حلاً لمشكلة هذه الفتاة .. حتى لو ماتت فأنا أشك فى إمكانية زواج الأشباح ..

ثم إنها لا تريد الفرار من هذه البيئة .. إنها تمقتها لكنها فخورة بها إلى حدٍ غير عادى ، وهذا واضح تمامًا ...

إن القصة مقبضة دون شك .. وكابوسية .. ومشئومة .. لكنها كانت تستحق أن أحكيها ، ولا أدرى ما إذا كنت تشاركنى الرأى فى هذا ..

أما عن مصداقيتها فأمر يحتمل النقاش ..

ربما أحاول يومًا ما العثور على هذه الفتاة أو الاتصال بها .. إن الجلوس مع أشباح فى قاعة واحدة ، وتبادل الآراء .. لأمر جدير بالتجربة .. برغم كونه مريعًا ....

ومن يدرى ؟

لربما اشتريت لنفسى قبرًا فى هذه القرية ، حتى

إذا متَ كان من السهل علىَ أن ألحق بهذه الأسرة الكبيرة ، وحتى لا أشعر بالوحدة فى قبرى ....

لقد انتهت أسطورتهم ..

انتهت بشكل من أشكال الحب المستحيل ، مع الاعتذار للأستاذ (رءوف وصفى) على استعمال عنوان إحدى مجموعاته القصصية ...

إن الحب بين شبح وإنسان حىَ لأمر عسير إلى حدَ ما .. ولا أتوقع له نجاحًا كبيرًا ....

★ ★ ★

فى القصة القادمة ندخل بعدًا آخر من أبعاد الفزع التى لا حصر لها .. سنتحدث عن آخر الليل .. ليس أوله ولا وسطه بل الهزيع الأخير منه ، حين ينذر الفجر بقرب نجاتك .. لكنه لا يأتى أبدًا ...

ولكن هذه قصة أخرى .

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

رقم الإيداع : ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة

٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية

القاهرة - ☎ ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤